



نحو النص عند سعد مصلوح

عبد السلام السيد حامد

أستاذ

قسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم

جامعة قطر

قطر

abdulsalamh@qu.edu.qa

تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٠٣/١٩

تاريخ القبول للنشر: ٢٠١٥/١١/٢٢

نحو النص عند سعد مصلوح

عبد السلام السيد حامد

مستخلص

التاريخ المشهور لظهور اتجاه «نحو النص» في فضاء الدراسات العربية هو أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات، وقد كان سعد مصلوح من القليلين الذين رادوا هذا المجال وبشروا به حتى قبل هذا التاريخ. وملامح جهده في هذا وأسس حقيقته وإسهامه تاريخياً وعلمياً جملة أو تفصيلاً، أمور ربما لا تكون واضحة في الدرس اللساني العربي بصورة متكاملة؛ بسبب تفرق أبحاثه في هذا المجال، برغم أهميتها وخصوصيتها.

من هذا المنطلق يأتي بحثنا هذا ليجلي جهده في نحو النص من خلال المحاور الرئيسية التي تتناول أبحاثه الثلاثة في هذا المجال رسداً ووصفاً، ثم تربطها بالتحليل الخاص بها من حيث المفاهيم والنظرية، ثم تعقب بالمناقشة والملحوظات والخاتمة.

إن مما يعطي لهذا الموضوع أهميته تكامل أبحاث سعد مصلوح النصية، وجمعه فيها بين النظر والتطبيق والتقويم والنقد، إضافة إلى جِدَّة أفكاره، وعمق تناوله، وسعة طرحه الذي يمس مسائل جوهرية تتعلق بالنحو التقليدي والبلاغة والأسلوبيات اللسانية والنقد، والقديم والحديث.

كلمات مفتاحية: نحو الجملة، نحو النص (لسانيات النص)، أجروميّة للنص الشعري، معايير النصية، تمام حسن، الوزن، الأسلوبيات اللسانية.

Text Grammar in Saad Maslouh's Writing

Abdel Salam El-Sayed Hamed

Abstract

The early studies on text grammar appeared in the late 1980s. Maslouh was among the few founders of this field in Arabic studies. However, his contribution has not been fully acknowledged in spite of its originality, richness, and importance.

The current study aims at bridging this gap by shedding lights on Maslouh's contribution to text grammar. It will study the major aspects of his three researches on the area. The study will describe his work and compare his theoretical backgrounds to his analysis and introduce a final discussion and results.

The importance of this work emerges from the integrity of Maslouh's writings and the vividness of his perspectives as well as the comprehensiveness of his analysis.

Keywords: Sentence Grammar, Text Grammar (Text Linguistics), Ajurrumiya for Poetic Text, Textuality Criteria, Tammam Hassan, Metrics, Linguistic Stylistics.

٠_٠ توطئة:

والغرض من دراسة هذه الأعمال بيان حقيقتها وقيمتها، ومساءلتها من حيث الماهية والكيفية عن دورها في تأسيس الدرس العربي الحديث لنحو النص وتشكيله نظرياً وتطبيقياً.

ومن أوجه أهمية هذا البحث وهذه المسألة، أن مراجعة دراسات نحو النص وردت في بعض الأبحاث والدراسات والمؤتمرات وشغلتها، وغابت عن بعض؛ ففي واحدة من أهم الدراسات التحليلية النقدية الموسعة عن اللسانيات العربية المعاصرة، قُدمت مراجعات للسانيات التمهيدية وللسانيات التراث واللسانيات الوصفية واللسانيات التوليدية واللسانيات الوظيفية، في حين تجاوزت تلكم الدراسة "لسانيات النص" وغابت عنها (انظر علوي، ٢٠٠٩: ١٦، ٤٣٩-٤٤٥)، وإذا فسّرنا هذا الغياب بقصر عمر دراسات نحو النص في العربية وقت إعداد هذه الدراسة، فإنه يظل دليلاً على بقاء الاحتياج إلى مراجعة دراسات نحو النص— ومنها أعمال بحثنا هذا— ومساءلتها، خاصة في حالة الحكم المشوب بالإدانة لجهود اللسانيات العربية في المجالات السابقة المشار إليها والقول بأن مناهجها نجحت "في تقديم أوصاف وتفسيرات جديدة، لكنها لم تفلح لحد الآن في أن تصحح وضعاً أو تجدد منهجاً أو تقدم بديلاً عملياً لاعتبارات كثيرة ترتبط بخصوصيات المقام" (علوي، ٢٠٠٩: ٤٠٦).

١_٠ الأبحاث رسداً ووصفاً

١_١ لمحة تاريخية

يؤكد زيادة أبحاث سعد مصلوح في نحو النص وحضورها الباكر في أفق الدراسات العربية— مع أعمال أخرى محدودة— أنه في بحثه الأول (العربية من نحو الجملة إلى...) جدد الدعوة إلى نحو النص بعد أن كان قد دعا إليه في عمليتين سابقتين، قال: "ونود هنا أن نشير إلى أن الدعوة إلى "نحو النص" قد ترددت في عمليتين سابقتين لكاتب هذه الدراسة حاول فيهما بيان أهمية "نحو النص" والآمال المعقودة عليه في دراسة العربية وفقه نصوصها؛ فقد بين المؤلف في كتاب "الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية" كيف استطاعت اللسانيات الحديثة "أن تنتقل بوسائلها المنهجية من العمل في إطار "نحو الجملة" sentence grammar — وهو النحو الذي يعدّ الجملة أكبر وحدة في التحليل اللغوي— إلى محاولة ترسيخ نمط جديد من التحليل اصطلاح على تسميته "نحو النص" text grammar ... ورأينا ثمة أن دراسة الأدب العربي ما تزال "بعيدة كل البعد عن الإفادة من إنجازات الدرس اللغوي المعاصر في هذه السبيل". أما الإشارة الثانية فكانت في معرض استظهار كاتب هذا البحث

الإنتاج العلمي الرصين المتجدد لسعد مصلوح— خاصة في اللسانيات والأسلوب ودراسة النص الأدبي— عطاء غير مجذوذ، شديد التميز، تنظيراً وتطبيقاً ومراجعةً ونقداً لسانيّاً وأدبياً وترجمة، ولما عُرف عنه من جمعه بين الدرس اللساني والدرس الأدبي والنقدي، أبان هو عن حقيقة عمله ومذهبه مُلمحاً إلى هذه العلاقة بقوله: «إنني واقف حيث اختارت لي الأقدار— وما أحبّه إلى نفسي من اختيار— على أرض التحليل اللغوي الدقيق، معتزاً بانتمائي إلى المدرسة اللغوية المعاصرة، وأوثر دائماً أن أحسب في عداد اللغويين المختصين، على أن أعدّ من هواة النقد» (مصلوح، ٢٠٠٤/ب: ٢٠٧).

ومن المجالات التي أسهم فيها سعد مصلوح بنصيب وافر مجال «نحو النص» أو «لسانيات النص»، وله في هذا ثلاثة أبحاث أساسية هي:

- «العربية من نحو الجملة إلى نحو النص»، منشور في الكتاب التذكاري عن الأستاذ عبد السلام هارون بجامعة الكويت سنة ١٩٩٠.
- «نحو آجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية»، نُشر أولاً في مجلة فصول (المجلد العاشر) سنة ١٩٩١، ثم أعيد نشره في كتاب «في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة». (لهذا الكتاب عدة طبعات منها طبعة مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت ٢٠٠٣، والطبعة الأولى لعالم الكتب ٢٠٠٦).
- "المذهب النحوي عند تمام حسان من نحو الجملة إلى نحو النص"، بحث نشر أولاً بمجلة كلية الآداب— جامعة القاهرة (المجلد ٥٩ — العدد ٣) سنة ١٩٩٩، ثم أعيد نشره في كتاب "في اللسانيات المعاصرة: دراسات ومناقشات" سنة ٢٠٠٤م.

هذه الأعمال— وما ينتسب إلى مجالها مما ورد في مبحث "مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية" خاصة (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ١٩-٩٢)— هي مدار الاهتمام في هذا البحث، أتناولها بما هي أهل له من رصد ووصف وتحليل ومناقشة، من خلال محاور أربعة هي:

١- الأبحاث رسداً ووصفاً.

٢- المفاهيم والنظرية.

٣- مناقشة وملحوظات.

٤- الخاتمة.

التواريخ التي يذكرها ويرجع أقدمها إلى سنة ١٩٨٠، أرى أنها تعكس تاريخه هو مع تطور فكرة لسانيات الخطاب (النص) لديه أكثر مما تعكس رصد بزوغ الفكرة بشكل عام في فضاء الدرس العربي اللساني كله، وهي أيضاً- في أحسن تقدير- تدل على إيماء مبهمة عامة للسانيات النص أو الخطاب، متزامنة مع إشارة صريحة واضحة عند سعد مصلوح، وهي (أي إشارة سعد مصلوح) تسبق أيضاً الفصل المترجم من كتاب براون ويول.

الثانية: أن ما ذكره حافظ علوي من سجل تاريخي وتصنيفي لتطور البحث والتأليف والترجمة في لسانيات النص لدى العرب، وأدرج فيه اثنين من الأبحاث الثلاثة لسعد مصلوح (انظر علوي، ٢٠١٣: ٣٠٧/١-٣١٧)- في حاجة إلى إيضاح وتعليق.

وبيان ذلك أنه ذكر الأعمال مصنفة ومرتببة ببداياتها على النحو الآتي:

في مجال الأطروحات الجامعية: أول عمل هو (مظاهر انسجام الخطاب) لمحمد خطابي في المغرب سنة ١٩٨٨.

وفي مجال الكتب المؤلفة: أول عمل هو (في بناء النص ودلالاته: محاور الإحالة الكلامية) لمريم فرنسيس سنة ١٩٨٨، ثم (انفتاح النص الروائي: النص والسياق) لسعيد يقطين سنة ١٩٨٩، ثم (دينامية النص: تنظير وإنجاز) لمحمد مفتاح سنة ١٩٩٠، ثم (لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب) لمحمد خطابي سنة ١٩٩١.

وفي المقالات والأبحاث: العمل الأول هو (نظرية تحليل النص من خلال الأصول اللسانية) لعبد الرحمن بو درع، سنة ١٩٨٨، ثم الثاني: (العربية من نحو الجملة إلى نحو النص) لسعد مصلوح سنة ١٩٩٠، والثالث لسعد أيضاً وهو (نحو آجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية) سنة ١٩٩١.

وفي مجال الترجمة: أول عمل هو (علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب- البلاغة- علم اللغة النصي) لبرند شبلنر، ترجمة محمود جاد الرب سنة ١٩٨٧، ثم ترجمة (نظرية النص) لرولان بارت سنة ١٩٨٨، ثم ترجمة كتاب (علم النص) لجوليا كريستيفا سنة ١٩٩١.

وهذا الجمع والتصنيف والترتيب المستمر زمنه إلى عام ٢٠١٠- يتبعه تصنيف سداسي آخر للأعمال، بحسب كونها نظرية أو تطبيقية أو جامعة بينهما أو كونها نقدية أو تنظيرية أو ترجمة، وكل ذلك جهد طيب، لكن عليه ملحظان فرعيان فيما يتعلق بموضوعنا:

لوجوه الافتراق بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية... ولقد مرت على الإشارة الأولى سنوات تقارب العشر، وكان المرجو منها أن يكون فيها ما يحفز همة الباحثين إلى ارتياد هذا الأفق الممتد بلا نهاية. ولعل في تجديد الذكرى ما ينبه إلى ضرورة هذا المطلب العلمي الشريف. وما هذا البحث إلا محاولة من كاتبه لإيلاف الباحثين، وإيناس وحشتمهم في سبيل عزّ السالكوها" (مصلوح، ١٩٩٠: ٤٠٩، ٤١٠). (و جدير بالذكر أن الإشارة الثانية كانت في بحث "مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية" [ص ٥٤-٥٥]، وهو بحث قُدّم إلى ندوة "قراءة جديدة لتراثنا النقدي" المقامة بجدة سنة ١٩٨٨. ومن الواضح أنه ذو نسب قوي بما نشر بعد ذلك في كتاب "في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية"). ومعنى هذا أن الإشارة الأولى لنحو النص عند سعد مصلوح كانت سنة ١٩٨٠، وهي سنة الطبعة الأولى لكتاب "الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية" (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/٢: ٢٢٧، ٢٤٦. ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً أن سعد مصلوح أشار إلى أن الأستاذ أمين الخولي في كتابه "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب" كانت له لفظة رائعة داعية إلى تجاوز البحث البلاغي مستوى الجملة إلى ما وراءها في الفقرة والنص، وكان ذلك في زمن متقدم يعود إلى سنة ١٩٣١، ولم تجد هذه الدعوة صدى لها إلا فيما كتبه الأستاذ أحمد الشايب في كتابه "الأسلوب" الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٩. وقد أشار سعد مصلوح إلى أننا نحس بعظمة هذه اللفظة عندما ندرك أنها سبقت ظهور ما شابهها في أدبيات الدرس اللساني الأوربي؛ إذ يرجع تاريخ أول مقال معروف "نصب نفسه لدراسة البنية النحوية في النص إلى عام ١٩٥٢، وكان كاتبه هو زيليج هاريس Zellig Harris اللساني المخضرم". انظر: مصلوح، ٢٠١٠: ٤٤ - ٤٦)، وبناء على ذلك تكون هذه الإشارة في الدرس العربي- حتى لو كانت عابرة خاطفة لها أهميتها؛ لأنها سابقة لغيرها من الناحية التاريخية، وفي هذا الإطار نذكر ملحوظتين:

الأولى: أن ما ذكره محمد خطابي عن بدايات البحث العربي في لسانيات النص من أن اللوحة الأولى كانت لأحمد المتوكل في أطروحته للدكتوراه سنة ١٩٨٠ (نظرية المعنى عند اللغويين العرب القدامى)، عندما استخدم لفظ "خطاب" في تسمية الحقول المعرفية، فقال: خطاب اللغويين وخطاب الأصوليين وخطاب المفسرين، وهكذا، وأن هذه الأطروحة طبعت سنة ١٩٨٢، ثم تبع ذلك أنه (أي خطابي) سنة ١٩٨٤ ترجم الفصل الأخير من كتاب براون ويول، ثم جاءت بعد ذلك أطروحته (مظاهر انسجام الخطاب) سنة ١٩٨٨ (انظر خطابي، ٢٠١٣: ٣٩٩/١-٤٠١)- أقول: إن هذه

تمهيداً كبيراً - الطريق أمامنا لكي نفيد من لسانيات النص - فيما نفيد - في درسنا النقدي" (عبد المجيد، ٢٠١٣: ٢٩٨/١، ٢٦٩؛ وعفي، ٢٠١٢: ٢٢، ٢٣).

٢_١ المضمون

تتكامل الأبحاث الثلاثة فيما بينها موضوعياً وتتبعاً زمنياً في الترتيب بصورة منطقية - حتى ولو لم يكن ذلك مقصوداً قصداً بين الباحثين الثاني والثالث - ليؤدي كل واحد منها دوراً محدداً، يُسلم فيه الأول إلى الثاني، ويفضي فيه الأول والثاني كلاهما إلى الثالث، حيث يكتمل العمل وتبدو الأبحاث الثلاثة - قصداً أو تلقائياً - كالبناء الواحد تعاضداً ومؤازرة وتكاملاً. ومردّ هذا إلى أن البحث الأول (العربية من نحو الجملة إلى نحو النص) مدخل تنظيري. والبحث الثاني (نحو آجرومية للنص الشعري...) تطبيقي وإجرائي ممزوج بلمحات تنظيرية، وهو لغوياً يجمع بين نحو النص والدخول في الوقت نفسه في دائرة "النقد اللساني"، عندما نقصد به "توظيف مناهج اللسانيات بأفرعها المختلفة ومصطلحاتها المتنوعة ومفاهيمها المتباينة، في حقل النقد الأدبي، أي في الدراسة النقدية (الأدبية) للخطاب" (فاولر، ١٩٩٦: ٨). والبحث الثالث (المذهب النحوي عند تمام حسان من نحو الجملة إلى نحو النص) تقويمي ونقدي في المقام الأول، وبناءً على هذا هو يدخل في دائرة "النقد اللساني" عندما نقصد بهذا المصطلح مراجعة أبحاث اللسانيين وكتبهم وأعمالهم وتقويمها وتحليلها (هذا المفهوم هو ما قصده سعد مصلوح في كتابه "في النقد اللساني: دراسات ومثاقفات في مسائل الخلاف"، وكذلك ما قصده عبد العزيز مطر في كتابه "في النقد اللغوي". انظر مصلوح، ٢٠٠٤/ب: المقدمة، ومطر، ١٩٨٧: ٥). وعلى هذا النحو جاءت الأعمال الثلاثة معبرة عن الجهات الثلاث للبحث والدراسة لدى سعد مصلوح، وهي: النظر أو التنظير، والتطبيق، والتقويم والنقد والمراجعة.

ومن البين أن هذا التتابع كان مقصوداً قصداً بين الباحثين الأول والثاني، آية ذلك إشارة سعد مصلوح في البحث الأول إلى أن الحديث البرامجي المنظم عن ماهية "نحو النص" لا يمكن أن يكون صائباً ويؤتي ثماره إلا إذا امْتَحَنَ بطريقتين: الأولى: عرض تراث النحو العربي على نحو النص بغية تقويم هذا التراث، وتشخيص العوائق المانعة عن مساهمة الفكرة، وتأصيل الإطار النظري لنحو النص العربي بما يناسبه، وبيان كيفية صياغة المناسبة بين الاثنين باستظهار وجوه الاتفاق والافتراق، والثانية: ممارسة تطبيقية على قدر صالح من النصوص، يترتب عليها سيره ومعاودة

الملحظ الأول: أنه فاتته أن يشير إلى بحث سعد مصلوح (المذهب النحوي عند تمام حسان من نحو الجملة إلى نحو النص)، وكان الأليق به أن يوضع في المقالات والأبحاث أولاً - على أساس أنه نشر أولاً في صورة بحث في مجلة - ثم يُدرج ثانياً في الكتابات النقدية، لأن فكرته قائمة - كما سيتبين بعد - على المراجعة والتقويم.

والملاحظ الثاني: أنه ذكر بحث (نحو آجرومية للنص الشعري...) وصفه في "الكتابات التطبيقية"، وهذا صحيح ومقبول، لكنه بالنسبة إلى بحث (العربية من نحو الجملة إلى نحو النص) أشار إليه في المقالات، وفاته أن يدرجه بعد ذلك في الأقسام التحليلية التصنيفية الستة الأخرى. وفي ظني أنه كان ينبغي أن يوضع في "الكتابات التنظيرية" مع العمل المفرد الذي ذكره لأحمد المتوكل في هذا المجال وهو "قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص" (انظر علوي، ٢٠١٣: ٣١٧/١)؛ لأن هذا البحث يتوجه بالكلية إلى التنظير بعدّه مدخلاً مهمّاً له، كما سنوضح في المسألة الآتية التي نصف فيها الأعمال الثلاثة ونتحدث عن مضمونها.

وخلاصة هذه اللوحة التاريخية تتمثل في أن إشارة سعد مصلوح إلى نحو النص والدعوة إليه ولفت الأنظار إلى أهميته سنة ١٩٨٠ في كتابه (الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية)، تعد إشارة متقدمة جداً بالمقارنة بغيرها، وأن بحثيه المتتابعين (العربية من نحو الجملة إلى نحو النص سنة ١٩٩٠)، و(نحو آجرومية للنص الشعري سنة ١٩٩١) أكدا هذه الإشارة والدعوة بالتنظير والتطبيق، وأنهما يكادان يكونان مترامين مع أعمال أخرى ظهرت في الفترة نفسها؛ لأن ما سبقهما من الناحية العملية بدأ في الظهور قبل أولهما بثلاث سنوات (أعني ترجمة د. محمود جاد الرب لكتاب "علم اللغة والدراسات الأدبية..." التي ظهرت سنة ١٩٨٧ وما تلاها من أعمال إلى سنة ١٩٩٠). وهما مع سبق غيرهما لها - بأمد قصير - كان لهما تأثير كبير ومثلاً مرجعية لكثير من الأبحاث والدراسات التي خلفتهما؛ وذلك لتميزهما في طرح قضية نحو النص والتطبيق عليها. ومن شواهد هذا عدّ بحث سعد مصلوح (نحو آجرومية للنص الشعري) مع كتاب محمد خطابي (لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب) - وقد ظهر العملان في عام واحد هو ١٩٩١ - أقول من شواهد ذلك عدّ هاتين الدراستين أولى محاولات الإفادة من "لسانيات النص" في نقد الشعر العربي، والقول بأن لهما "فضلاً كبيراً في تعريف القارئ العربي بهذا العلم (لسانيات النص) وأهميته، وما يفتحه أمامنا من آفاق بحثية تحدث نقلة نوعية. كما أنهما مهدتا -

وهو مجرد حاصل جمع الجمل، مع أن "نحو النص" المراد الذي يُدعى إليه ليس كذلك؛ لأنه نمط مركب من التحليل يشمل فحص علاقات متدرجة تمتد من داخل الجملة إلى النص والخطاب (انظر مصلوح، ١٩٩٠: ٤٠٧).

وبعد إشارة تاريخية إلى كيفية ظهور "نحو النص" لدى الغرب، وتجديد سعد مصلوح دعوته إليه— كما سبق عرض ذلك— بيّن الغرض من البحث وأشار إلى مسأله بقوله:

"والغاية من هذه الدراسة هي تحسس الطريق إلى إطار نظري لدراسة النص العربي. وتشتمل الدراسة على ثلاثة مباحث نعالج في أولها العلة الغائية لنحو النص، وفي الثاني ماهيته. أما الثالث فهو تقييم للنحو العربي من وجهة النصية لنحدد أظهر خصائصه التي تقعد به عن استشراف هذا الأفق الجديد، والكيفية التي يمكن بها تجاوز هذه المعوقات؛ لنخرج بالنحو العربي من دائرة "قل ولا تقل" إلى آفاق الدراسات النصية التي أصبحت مهوى عقول المشتغلين بعلوم الإنسان عامة، والمشتغلين بدراسة النص الأدبي على الخصوص... هذا ولئن كانت هذه الدراسة تفتح القول في نمط من النحو لا سابق عهد للعربية به، فإنه يلزم أن يكون لها— بإذن الله— بُعد وما بُعد البعد. وما كنتُ مستطيعاً أن أخرج زُبدة السقاء في أول المخض. وأحسب أن في ذلك عذراً كافياً من وجوه نقص ما منها في المقام بُدّ، ومن مسائل ما تزال في حاجة إلى فضل تأمل وإنعام نظر... (مصلوح، ١٩٩٠: ٤١١).

وفي مبحث "العلّة الغائية" لنحو النص بيّن أن الأنحاء التقليدية كانت أنحاء جملة غايتها معيارية تعنى بالصواب والخطأ، ثم تراجع ذلك ليشغل حيزاً محدوداً من اللسانيات التطبيقية، وبرز مع ذلك استراتيجيات جديدة مختلفة في اللسانيات الحديثة؛ إذ أصبح همها دراسة الظاهرة اللغوية في ذاتها وفهم قوانينها والاتجاه إلى التنظيمية والتعميم من خلال معالجة التفاصيل، وأدى ذلك في الدراسات الغربية إلى الاتجاه إلى دراسة النص ولسانيات النص. وتكمن أهمية دراسة النص في أنها هي التي تعين على فهم أمثل للظاهرة اللغوية. ولذا فمن المحتم على العربية ونحوها اقتحام عقبة نحو النص؛ لأن ذلك سيكون له أثر كبير في دراسة تجليات الإبداع كافة في العربية (انظر مصلوح، ١٩٩٠: ٤١٢-٤١٦).

وفي "مبحث الماهية"، بالإضافة إلى فكرة الحديث البرامجي عن نحو النص من خلال اختباره بطريقتين— على النحو السابق ذكره— يثير سعد مصلوح عدة قضايا من أهمها: الخصائص المطلوبة لإنجاز إطار نظري لنحو النص،

النظر فيه لإحكامه وتجويده. وتعقيباً على ذلك قال سعد مصلوح:

"وقد أمحضنا هذا المبحث والذي يليه من هذه الدراسة لبيان ماهية نحو النص، وعرضه على المحك الأول لتحديد ما بينه وبين النحو العربي من مشكلات وخصائص. أما صياغة الإطار النظري العربي وامتحانه تطبيقياً فسنأتي إليه إن شاء الله في دراسات لاحقة. وهذا التدرج في عرض القضية لا مندوحة عنه، إذ هو تدرج يمليه المنطق" (مصلوح: ١٩٩٠: ٤١٧).

إذن البحث الأول جزء من الطريقة الأولى أو الامتحان الأول، والبحث الثاني هو تنفيذ وتحقيق لما وعد به سعد مصلوح من الامتحان التطبيقي، وهو ممزوج بإشارات عابرات في التأسيس ومحاولة الإسهام في صياغة الإطار النظري في آن واحد، من خلال الحديث المختصر عن المنهج ومعايير النصية وما يناسب مقام التطبيق والتحليل العمليين (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٢٢، ٢٢٣).

وأما البحث الثالث (المذهب النحوي عند تمام حسان من نحو الجملة إلى نحو النص)، فربما لم يكن بهذه الصورة القاطعة من القصد، لكن الصلة قائمة بينه وبين البحث الأول خاصة— كما أشار هو— لأنه ربط فيه (أي في البحث الثالث) حادث عمل تمام في محاضراته (نحو الجملة ونحو النص) (كانت محاضرة الصيف في الموسم الثقافي لمعهد اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، سنة ١٩٩٢). انظر: صورة من المحاضرة بخط تمام حسان— بما ذكره في البحث الأول عن قديم عمله المتميز في كتابه "اللغة العربية: معناها ومبناها"، من حيث كونه الصياغة الجديدة الكاملة لنحو الجملة المهيأة لأن تكون منطلقاً رصيناً لارتداد آفاق نحو النص في العربية (انظر مصلوح، ٢٠٠٤: ٢٠٤). وهذا البحث الثالث نقد لغوي ومراجعة، وهو— بلا شك— يضم إلى النقد والمراجعة قدراً كبيراً من التنظير. وبذلك يتأكد ما أشرنا إليه من تكامل الأعمال الثلاثة وشمولها للجهات الثلاث للبحث والدراسة لدى سعد مصلوح.

١_٢_١ خلاصة البحث الأول:

فيما سبق بعض من خلاصة هذا البحث مما يتعلق بغرضه ومضمونه العام. وإضافة إلى ذلك نشير إلى أن من المقدمات التي وردت فيه أن النحو التقليدي استنفذ أغراضه، وعلينا تجاوزه إلى واقع علمي جديد يُعنى بمستوى النص الذي أهمله نحو الجملة، ونظر إليه على أنه سلسلة من الجمل، كل واحدة منها تفيد فائدة يحسن السكوت عليها،

ومنتسباً إليه في الغرض وسمى ذلك الأطراد في تسويم رؤوس الفصول. انظر فضل، ١٩٩٢: ٢٤٦، والقرطاجني، ١٩٨٦: ٢٩٨، ٢٩٩؛ ولذا فهو محفوف بالمخاطر، لكن فكرة "مفاتيح النص" تضبطه، والمفاتيح في القصيدة هنا هي حركة الضمائر وتحولاتها، على أساس الالتفات، الذي يتجاوز في بعض صورته ما عرفه البلاغيون، وقد جعل هذا القصيدة خمسة أقسام، ففي القسم الأول حديث الشاعر التمهيدي العام عن رسوم ابنة عجلان وأهلها الذين بادوا، وفي الثاني حديث مُرَكِّز بضمير الغائب عن ابنة عجلان، وفي الثالث يتحدث الشاعر عن ذات نفسه بضمير المتكلم، وفي الرابع يتحول الحديث عن النفس من ضمير التكلم إلى ضمير الخطاب على سبيل التجريد، وفي الخامس يكون دليل البدء عليه الحديث عن النفس مرة أخرى بضمير المتكلم. وهذا التحول في حركة الضمائر يتخذ سعد مصلوح دليلاً للرد على كثير من مزاعم افتقاد القصيدة العربية القديمة للوحدة العضوية. والعلاقات بين مفاهيم القصيدة ينتظمها مركزها وهو دورة المعية والشتات أو الوجدان والفقْد، وتحولات الضمائر التي تغدو تجسيداً لغويًا في ظاهر النص لعلاقة التآرجح والتحول والصيرورة (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٣٠-٢٣٥).

ويركز التحليل على ذكر معايير النصية السبعة المعروفة، وهي: السبك (cohesion)، والحبك (coherence) والقصد، والقبول، والإعلام، والمقامية، والتناس. وهو يُعنى على وجه الخصوص بتطبيق معياري السبك والحبك على النص. وفي "السبك" يُشار إلى أن قوام وسائله مفهوم "الاعتماد النحوي" على جميع المستويات: في الجملة وبين الجمل وفي الفقرة وفيما بين الفقرات أو المقاطع وفي النص كله على وجه الإجمال. ومن أهم وسائل السبك التي تتجلى في النص ويظهرها التحليل "التكرار" بصوره المختلفة، ما بين محض مع وحدة المرجع أو مع اختلاف المرجع، وتكرار جزئي وشبه تكرر، ويدخل في هذه الدائرة الجنس بنوعيه التام (في التكرار المحض) وغير التام أو المحرّف كما يسميه السكاكي (في شبه التكرار)، ويكون له في النص تأثير كبير إذا نُظر إليه مع تجاوز مستوى الجملة، ومن أمثلة ذلك تدبر هذين البيتين على بعد ما بينهما من حيث موقعهما في النص:

٦- كأنَ فاهَا عُقَارٌ قَرَقَفَتْ نَشَّ مِنَ الدَّنِّ، فالكأسُ رَدُومٌ
١٣- تبكي على الدهر، والدهرُ الذي أبكاك، فالدمع كالشَّنِّ هزيمٌ
(العُقَار: الخمر. قرقف: التي يصيب صاحبها من شربها رعدة. نشن: تحرك. رَدُوم: سائل. الشَّنِّ: الوُزْبَة الخلق. هزيم: متكسّر أو القربة المتشقة).

وبيان موقع نحو النص من النظرية اللسانية، ومعوقات النحو العربي التي تبعده عن نحو النص. وسيأتي تفصيل هذه المسائل فيما بعد مع ما يتصل بها من مسائل أخرى ترتبط بها، عند الحديث عن "المفاهيم والنظرية".

١_ ٢_ ٢ خلاصة البحث الثاني:

يتناول هذا البحث التطبيقي تحليل قصيدة المرقش الأصغر التي مطلعها:

لابنة عَجَلانَ في الجوّ رسومٌ لم يتعَفَّينَ والعهدُ قديمٌ

وهي قصيدة عدة أبياتها عشرون، تجاوز سعد مصلوح في دراستها الحديث المفصل فيها عن الأساس المنهجي المتبع والانتماء العلمي الصادر عنه، مكثفياً بإشارات مختصرة إلى ضرورة اقتحام النحو العربي لنحو النص والاعتماد عليه في دراسة النصوص الأدبية، ومستغنياً بما يستنبطه القارئ من أدوات التحليل المستعملة والإجراءات المتبعة عملياً. وهذا البحث يُعدّ محاولة أولى لامتحان جانب من الفروض والإجراءات التي تصوغ ملامح فكرة أجرومية النص (نحو النص أو لسانيات النص). وقد أشار إلى صعوبة هذه الدراسة وجدة مذهبها بقوله:

"ولا يخفى ما يحفت بتلك الغاية من صعوبة يتصل بعضها بمفارقة المعالجة للمألوف والمتوقع، وبعضها بتطويع أجرومية النص بما هي إنجاز لساني معاصر لدراسة نص عربي أولاً، وشعري ثانياً، وجاهلي ثالثاً. وهي صعوبات متراكبة بعضها فوق بعض. ويتصل بعض ثالث بضرورة إقامة نوع من الجسور الواصلة بين هذا النمط الوافد من التحليل والموروث النحوي" (مصلوح، ٢٠١٠: ٢٢٤).

وردت الدراسة في عشر مسائل تتفاوت طولاً وقصراً، وهي: الشاعر والقصيدة- النص- فاتحة ومهاد- النص والنصية- تقسيم القصيدة - مفاتيح الدلالة ودلالات آخر- وسائل السبك- ثابت الوزن ومتغير الإيقاع- في حبك النص: المفاهيم والعلاقات- أزمنة النص.

في مجال تقسيم القصيدة يعدّ سعد مصلوح هذا التقسيم نوعاً من القراءة والتفسير (أشار صلاح فضل إلى أن ثمة حالة فريدة في التراث البلاغي لتقسيم القصيدة، نجدها عند حازم القرطاجني في تناوله قصيدة المتنبي التي مطلعها (أغالبُ فيك الشوقُ والشوقُ أغلبُ) فقد قسمها إلى ستة أجزاء وسمى كل جزء فصلاً، وميّز بين المطلع والمقطع وهو مكان الوقوف، ولم يهمل الإشارة إلى طريقة وصل الفصول بعضها ببعض، ووضع لذلك شرطاً هو أن يكون كل فصل تابعاً لمعنى سابقه

في تحليله لقصيدة "إنّ بالشعب الذي دون سلع"، وهي زمن الحدث وزمن النفس وزمن التغني (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٥٨-٢٦٠).

وعند تحليل الزمن الموضوعي في القصيدة يتبين أنه يبدو أنموذجاً بسيطاً؛ لأن الأحداث فيه في الماضي تتابع في شكل خط مستقيم، وأما في الحال فيأخذ هذا الزمن شكل متصل دائري مغلق تتابع فيه الأحداث وتتعاقد بطريقة الاستدعاء مرتبطة باللحظة الأنية (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٦٣ شكل ١).

أما في الزمن الذاتي من جهة المتلقي، فتتابع الأحداث وتتداخل في اتجاهات مباشرة وغير مباشرة طرداً وعكساً في متصل دائري، معبرة عن الأحداث الماضية والحالية مرتبطة باللحظة الأنية، ويستدعي بعضها بعضاً بصورة معقدة (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٦٣ شكل ٢). والتناقض بين البساطة والتعقيد في الزمنين الموضوعي والذاتي يكمن فيه الكثير من كفاية النص وفاعليته. وقد فُيِّمَ إيضاح وتمثيل لذلك من خلال شكل دائري تتبين فيه شبكة العلاقات المفهومية للأحداث أو المفاهيم الثمانية التي تكتنفها القصيدة من منظور الزمن الذاتي، مع ذكر الأبيات على جوانب الدائرة التي مركزها اللحظة الأنية بوصفها تعبيراً عن رسوم ابنة عجلان، والأحداث فيها عُقِدَ داخلها، ترتبط بها الأبيات لأنها تتجلى فيها مظاهرها أو تعبر عن وجه من وجوهها، والأحداث- بالإضافة إلى المركز- هي: المعية، والتحول، والشتات، واستدعاء الخيال، وحديث الذكرى، وإعذار النفس، وارتقَاب الخِلاص، وينقطع الاتصال في الدائرة في شكل مفاصل منقطّة لكي تعبر عن الأقسام الخمسة التي جرى تقسيم القصيدة على أساسها (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٦٨ شكل ٣). وتأمل هذه الدائرة يكشف مدى إحكام النسيج اللغوي لظاهر النص، وصلة ما بين ذلك وباطنه ومفاهيمه، ويدرك القارئ من خلال ذلك فرق ما بين الزمن الذاتي والموضوعي، واصلًا في النهاية إلى إدراك معياري السبك والحبك، بوصفهما أهم معايير النصية في النص الشعري.

٣- ٢- ١ خلاصة البحث الثالث:

البحث الثالث (المذهب النحوي عند تمام حسان من نحو الجملة إلى نحو النص) تناول فيه سعد مصلوح خمسة مطالب:

- ١- نقد تمام لنحو الجملة.
- ٢- خصائص إنجازه العملي في كتابه الفريد "اللغة العربية معناها ومبناها"، وقد شمل هذا الحديث عن موائز ما بين الصيغة التراثية والصيغة المقترحة، وحقبة أمن اللبس في رأيه، والمكون البلاغي في نظرية نحو الجملة لديه.

"لقد تباينت جهة القول بين البيتين؛ فهي المحبوبة الحسنة البلهاء النؤوم في الأول، وهي الشاعر المحب الباكي المؤرّق في الثاني، ومن ثم اقترن العُقار بالذنّ هناك، والدمع بالشّنّ هنا، ثم يتم الاستدعاء الذي يجسد المفارقة باستخدام "نشّ" وصفاً للعُقار، و"الشّنّ" ظرفاً للدمع، وبإقامة التوازي parallelism بين البيتين الخاتمتين في البيتين: "الكأس رنوم// الشّنّ هزيم"، ثم الإرداف بالواو المديّة في الأول المناسبة للتعبير عن الطفح والامتلاء، وبالياء المديّة في الثاني المناسبة للتعبير عن القهر والانكسار، على نحو يصور بالصوت مباينة بعضهما لبعض" (مصلوح، ٢٠١٠: ٢٤٥). إننا ما كان يمكننا أن نتبين أثر المحسن البديعي في ربط النص هنا وتجلّي باطنه في ظاهره، لو وقفنا به على حدود أسوار الجملة ورسوم الزخرفة اللفظية، وبهذا يبدو لنا أن التكرار لا يقتصر دوره على ظاهر النص فقط، بل يتعداه للتأثير في الحبك وحركة مفاهيم القصيدة، كالأدوار الأخرى التي يقوم بها التوازي والحذف وروابط الوصل والفصل (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٤٦).

ومن أهم الأفكار التي استندت إليها الدراسة في الكشف عن جانب المضمون والمفاهيم ثلاثية "الفاعل والقابل والأثر" التي هي أساس النظرية النحوية عند السكاكي (انظر السكاكي، ١٩٨٣: ٧٦)؛ إذ يمكن القول بأنها هي التي تحكم كل المفاهيم التي تدخل في تشكيل فضاء القصيدة:

"فالدهر هو المفهوم "الفاعل"؛ وسائر ما عداه: ابنة عجلان، والليل، والإنسان، كلها مفاهيم تدخل تحت "القابل"؛ والعفاء والإفقار، والسُهد وتبدل الأحوال "أثر". بيد أن من هذا "القابل" ما هو "فاعل" بغيره كما ذكرنا، ومثاله هنا المحبوبة والليل. ولا يكفنا الأمر كبير عناء في إقامة الدليل على هيمنة مفهوم "الدهر" الفاعل على طرفي الثلاثية الأخرين" (مصلوح، ٢٠١٠: ٢٤١).

وقد كان "الزمن" أيضاً عنصراً فاعلاً في تفسير بنية النص وتحليله. وقسمه سعد مصلوح إلى ثلاثة أقسام: موضوعي وذاتي ونحوي. فالزمن الموضوعي هو الحقيقي الواقعي القابل للقياس والقسمه إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل وهو المحكوم بتعاقد الليل والنهار، والذاتي هو الخاص بكل فرد ولا يخضع للقياس والقسمه، ويتسم بزوال الفواصل وبحريّة لا تحدها حدود. والزمن النحوي هو الماضي والحال والاستقبال، كما يبدو في الصيغ التي تعبر عنه، وهو ليس الزمن في اللغة، وتقسم الزمن في النحو العربي قاصر. ومن الجدير بالذكر المقارنة والربط هنا بين الأزمنة الثلاثة المذكورة وأزمنة ثلاثة أخرى ذكرها الأستاذ محمود شاكر

الناس، ووصمت النحو العربي بأنه العِلْم الذي نضج حتى احترق. لقد أصبح لدينا بهذا الكتاب صيغة عربية موفقة من صيغ "نحو الجملة" لم تكن من قبل، وهي صيغة يمكن الانطلاق منها لتحقيق النقلة المنهجية إلى "نحو النص" (مصلوح، ٢٠٠٤/أ: ٢٢٦).

ومن القضايا المهمة التي ينبغي التعرض لها بشيء من التفصيل، قضايا الخلاف مع تمام، وهي تدور حول: صفة المعنى والنص، ومعايير النصية، وأمن اللبس وقصد التلييس، والمكوّن البلاغي في نحو النص.

أولاً - صفة المعنى والنص

في هذه القضية مسألتان:

المسألة الأولى: إنكار رأي تمام في أن يكون غاية التحليل في نحو النص التوصل إلى معنى واحد ينفي التعدد والاحتمال؛ لأن ذلك إن صح في نحو الجملة، فإنه لا يمكن أن يصح في نحو النص، لأن "احتمالية المعنى وتعددده فيها هي الأصل، كما أنها أحد المعايير المائزة لجياد النصوص. ولئن أخرج نحو النص من مجال عمله النصوص المحتملة، إنه بذلك يكون قد طوى كشحاً عن أخصب مجالات النظر وأشدها غلقة بالسلوك اللغوي اليومي، والنشاط اللغوي الحي والملابس لكيئونة الإنسان في مختلف أطوارها وأحوالها" (مصلوح، ٢٠٠٤/أ: ٢٢٩، ٢٢٨).

المسألة الثانية: في إطار الإجابة عن سؤال: أي معنى وأي نص يصلح أن يكون موضوعاً للتحليل في نحو النص؟ بين سعد مصلوح أنه إذا كان تمام أخرج في درج كلامه التحسين اللفظي من دراسة المعنى العرفي لأن معنى التحسين فني لا عرفي، فإنه، أي سعد مصلوح يرى أن "كل أنواع المعاني: وظيفية ومعجمية وعرفية وفنية صالحة لأن تكون موضوعاً لهذا اللون من التحليل النحوي، وأن كل كلام يستوفي معايير النصية صالح لذلك أيضاً، سواء منه ما كان قطعي الدلالة أو حتمّ أوجه" (مصلوح، ٢٠٠٤/أ: ٢٢٩).

ثانياً - حول معايير النصية

١) فيما يتعلق بما يشترك فيه النمطان (نحو الجملة ونحو النص):

مصطلحا «التضام» و«الاتساق» اللذان وردا عند تمام بوصفهما من معايير النصية، ينبغي أن نتحدث عنهما من خلال المسائل الآتية:

٣- استجلاء الحديث عن نحو النص في مذهب تمام، من خلال الكلام عما يستقل به كل واحد منهما (يستقل نحو الجملة بالسمات الأربع للقاعدة النحوية: الأطراد والمعيارية والإطلاق والاقتصار، ويستقل نحو النص بخمس صفات هي: القصد والتناص ورعاية الموقف والإعلامية والقبول)، وما يشترك فيه النمطان كلاهما (صفتا التضام والاتساق)، وموقع أمن اللبس من نحو النص.

٤- ذكّر مسائل المطابقة التي يتفق فيها سعد مصلوح مع تمام حسان.

٥- بيان مسائل الخلاف مع تمام (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/أ: ٢٠٥-٢١٩).

وعندما نعرض بشيء من التفصيل لما يحتاج إلى ذلك، نجد أن وجوه المطابقة والاتفاق مع تمام حسان تتمثل في: نقد النحو القديم من المنظور النصي، وتقويم نحو الجملة في صيغته التي تضمنها كتاب "اللغة العربية معناها ومبناها"، وأهمية الانتقال بالدرس النحوي من ضيق الجملة إلى سعة النص.

وفي هذا الإطار تبين أن تمام حسان تولى باقتدار معالجة أوجه القصور التي كابدها النحو العربي من حيث وفائه لغايته في تعقيد الجملة، وذلك حين نعتة بأنه نحو تحليل لا تركيب (أو نحو مفردات لا تراكيب أو نحو أجزاء جملة لا جملة)، وقد فصل سعد مصلوح وجوه القصور في النحو العربي من هذه الناحية (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/أ: ٢٢١-٢٢٣)، كما بيّن الركائز الأساسية لإنجاز تمام في كتابه، وهي: إبراز الأهمية لتشخيص المعنى وأمن اللبس وجعل الأول (أهمية تشخيص المعنى) غاية الدرس النحوي والثاني غاية الاستعمال وقوام النظام، واعتماد مفهوم النظام اللغوي، وتأسيس فكرة تراتبية النظم اللغوية أو المستويات التحليلية، وممارستها في المستويين الصرفي والنحوي، والكشف عن دور الظواهر السياقية، والإشارة إلى أثر تضايف القرائن في تحقيق أمن اللبس والكشف عن المعنى، واستيعاب المقام داخل إطار النظرية النحوية. ومن أجل ذلك كان جوهر الإنجاز في هذا الكتاب أنه قدم صيغة متكاملة للنحو العربي، وحسبه ذلك قيمة وفخراً؛ لأنه استحق في تاريخ المصنفات النحوية واللسانية أن يكون في منزلة الأمهات والأصول (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/أ: ٢٢٥)، بل:

"لعلنا لا نجاوز الصواب حين نقول إن الكتاب كان استدراكاً بصيراً لجمهرة العلل القوادح التي فعلت فعلتها في جسم النحو العربي، وتزييفاً موثقاً لتلك القالة التي سارت في

تتحد بمفهوم "الاتساق" (الحبك) وتتداخل معه. وسعد مصلوح يفاكّ الجهة بين المفهومين؛ لأن الإعلامية في رأيه "تفترض ابتداءً أن للكلام محتوى يجري إيلاغه للمتلقى بواسطة النص، ومن ثم فهي لا تعالج نصاً غير محبوك [أو غير متسق] أصلاً، ولكنها تتسلط على الكيفية التي يجري بها عرض هذا المحتوى. إنها- بعبارة أخرى- تتعلق باستقبال الكلام على أنه نص ذو محتوى كما تتعلق بحكم المتلقي على طريقة عرض المحتوى بالجدة وبمدى توقعه لطريقة العرض، إذ يرتبط ذلك بما سمّاه ابن سينا "الإغراب" أو تحقق الطرفة وإخلاف التوقع لدى المتلقي، وهو أمر يمكن أن يرتفع به الكلام في سلم النصية. كذلك ترتبط "الإعلامية" بمعدل ظهور النقاط التي تمثل نقلات أو منعطفات جديدة في تسلسل عرض المحتوى بالنسبة للمتلقى؛ إذ تتميز النصوص باختلافها من حيث معدل البطء أو السرعة في حدوث النقلات، ومن ثم تتفاوت في مدى تحقق صفة النصية لها" (مصلوح، ٢٠٠٤/٢: أ، ٢٣٣، ٢٣٤).

المسألة الثالثة: مقتضى كلام تمام عن "القبول" عدم عدّه معياراً مستقلاً من معايير النصية، وأنه ينصب على تحديد المعنى المراد من بين المعاني المحتملة على جهة القطع، وقد تقدم بيان حقيقة هذا، والخلاصة في مفهوم "القبول" في رأي سعد مصلوح أن له أبعاداً ثقافية واجتماعية، وأنه يتصل "بتحديد موقف المتلقي من الكلام، ومدى تقبله لسلسلة الأحداث الكلامية على أنها نص قابل لأن يوصف بالسبك والحبك، وأن له نوعاً من الجدوى بالنسبة للمتلقى، كأن يكتسب معرفة أو يتبنى موقفاً، أو يُسهم باستجابة لإنجاز خطة، وهلم جزاً" (مصلوح، ٢٠٠٤/٢: أ، ٢٣٥).

المسألة الرابعة: ثمة أمور متفرقة أخرى هي: كون وصف تمام "نحو النص" بأنه تطبيقي لا نظري إطلاقاً يحتاج إلى تقييد، والقول بأن نحو النص لا ينشأ إلا بعد أن يكتمل النص وبعد أن يكون النص حاضراً (انظر حسان، ١٩٩٢: ١) ينبغي أن يؤخذ على أن هذا هو الأغلب؛ لأن هناك مقاربات نصية يطلق عليها "المقاربة الإجرائية" وهو نوع يستند إلى المقاماتية وعلم النفس الإدراكي وعلم الذكاء الاصطناعي؛ لتفسير العمليات الذهنية والأطوار النفسية التي تحدث عند إنشاء النص واستقباله وتفسيره "وهو باب من العلم ينتظر أولي العزم من أبناء العربية لترويض شُموسه وتيسير عُسراه" (مصلوح، ٢٠٠٤/٢: أ، ٢٣٦، وانظر فان دايك، تون، ١٩٨٠: 38-14 - van Schiffrin, D., Tannen, D., & Hamilton, and Dijk, (Teun A, 1985, H. E, 2001).

المسألة الأولى: أن تمام حسان ذكرهما دون أن يورد مقابلهما الأجنبي، وقد بيّن سعد مصلوح ذلك بأن «التضام» هو المقابل العربي لمصطلح Cohesion وأن «الاتساق» هو المقابل العربي لمصطلح coherence، غير أنه يؤثر أن يكون مصطلح "السبك" هو المقابل العربي لـ cohesion، وأن يكون "الحبك" هو المقابل العربي لـ coherence. وثمة ملحوظة على هذا ستأتي في موضعها من التعليق على ما قدمه سعد مصلوح ومناقشة آرائه.

المسألة الثانية: أن قبول "التضام" مفهوماً مشتركاً بين نحو الجملة ونحو النص يجب الحذر معه؛ لأن ثمة مظاهر أخرى للتضام في النص تتجاوز مستوى الجملة، حيث يشمل وسائل الربط في ظاهر النص على كل مستويات العلاقات: داخل الجملة وبين الجمل وبين الفقرات وما في حكمها وفي مجمل النص.

المسألة الثالثة: أن مصطلح Cohesion يتسع ليشمل كل أوجه الربط في ظاهر بنية النص نحوية كانت أو بلاغية، وفي هذا ردّ على تفريق تمام في نحو الجملة بين التضام بالمفهوم النحوي والتضام بالمفهوم البلاغي.

المسألة الرابعة: رفض تعريف تمام لـ "الاتساق" لكونه غير دقيق (انظر حسان، ١٩٩٢: ١، ٢)، وتعريف سعد مصلوح له بأنه "احتباك المفاهيم والتصورات في علاقات منطقية كالتضاد والتناقض والاستدعاء والسببية وهلم جراً. وقد تقوم هذه العلاقات بين جملتين، ولكنها في النص تتجاوز مفردات الجمل إلى كلية النص. وهي رصد لما هو كائن، وليست تشريعاً لما ينبغي أن يكون" (مصلوح، ٢٠٠٤/٢: أ، ٢٣٢، وانظر: ٢٣٠، ٢٣١).

٢) مسائل الخلاف مع تمام فيما يتعلق بما يستقل به نحو النص من معايير النصية:

المسألة الأولى: "القصد"، وقد أشار سعد مصلوح إلى أن تمام حسان لم يعرفه بشكل صريح، وأنه تحدث عنه بصورة ضمنية. والتعريف الذي ذكره سعد مصلوح للقصد وارتضاه هو: "اعتقاد المنشئ أن سلسلة الأحداث القولية التي ينتجها يمكن أن تشكل نصاً مسبوكاً محبوكاً... يكون أداة لتحقيق مقاصد المنشئ؛ كأن ينقل معرفة أو يحقق هدفاً جرى توصيفه في إطار خطة موضوعة". وعلى هذا يكون كلام تمام عن رفض نصية كلام المُكْرَه أو لغو الكلام المقصود غير مقبول (مصلوح، ٢٠٠٤/٢: أ، ٢٣٢).

المسألة الثانية: "الإعلامية" تعريفها عند تمام يجعلها

ثالثاً - بين أمن اللبس وقصد التلبس

رابعاً - حول المكوّن البلاغي في نحو النص:

همّش تمام حسان- على وجه الإجمال- دور المكون البلاغي في نحو الجملة، (انظر حسان، ١٩٩٢: ١٤) اعتماداً على أن البلاغة لا تقصد قصداً إلى بيان المعنى العرفي الذي هو غاية الدرس النحوي عنده، ورأي سعد مصلوح أن الأمر بخلاف ذلك عندما ننظر إلى البلاغة بعين نحو النص ومعاييرها وفي ضوء الاعتراف بالتعدد والاحتمال؛ إذ يتبين لنا أن مسائل علم المعاني لها نصيب كبير في إبراز وحدة البنية اللغوية للنص من خلال وسائل "السبك" التي جماعها "الاعتماد النحوي"، وأن علم المعاني يأخذ وضعاً جديداً في مجال نحو النص بعد أن يتجاوز حدود أسوار الجملة الواحدة، كما أن علم البيان يقوم بدوره في السبك المعجمي، وفي الإمداد بالكلمات المفاتيح التي من خلالها تُرصد حركة المفاهيم والعلاقات الرابطة بينها داخل النص بما يحقق معياري السبك والحبك. وأما علم البديع الذي عُده أهون الشركاء في النظرية النحوية لقناعته بوظيفة التحسين والتزيين- فله في نظرية نحو النص شأن عظيم؛ لأن جل فنونه، بل كلها معقود عليها الأمل في أن يصاغ منها معالم سبك النص حتى ما كان منها لفظياً محضاً (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/٢: ٢٣٨، ٢٣٩).

والخلاصة في تصور سعد مصلوح لإحداث نقلة منهجية للبلاغة العربية مع النحو للوصول إلى المرتجى في علم بلاغة النص- هي ضرورة الإفادة من قواعد ثلاث: علم الأسلوب اللساني والدراسة المقاماتية ونحو النص، نجد ذلك في قوله: "وحيث ننتقل بالدرس النحوي وتحويل البلاغة العربية من بلاغة الشاهد والمثال إلى بلاغة النص، بإقامتها على قاعدة منهجية رصينة من علم الأسلوب اللساني والدراسة المقاماتية ونحو النص- نقول: إننا حين نجهد لتحقيق هذه النقطة المنهجية نكون قد وضعنا جُل العلوم ذات الأرومة العريقة في الثقافة العربية وضعاً جديداً مفتوحاً على أصولها التراثية من جهة، وعلى المنجزات المنهجية للفكر البشري في حياتنا المعاصرة من جهة ثانية- وما كان هذا الأمر ليقوم بفرده أو أفراد، ولكن أحرى به أن يكون همّاً معرفياً أصيلاً للمشتغلين بهذا العلم الشريف والمعنيين بثقافة هذه الأمة في حاضر أمرها وقابله" (مصلوح، ٢٠٠٤/٢: ٢٤٢).

٢ - المفاهيم والنظرية

للبحث في النص مستويات ثلاثة أساسية: المستوى النحوي والمستوى الدلالي والمستوى التداولي (انظر بحيري،

في سبيل بيان حقيقة ما ذهب إليه تمام من أن أمن اللبس هو غاية الاستعمال اللغوي وقوام نظام القواعد، وأن هذا يسري على نحو النص كما يسري على نحو الجملة- يبين سعد مصلوح أن أمن اللبس فرض منهجي له حتميته ومشروعيته في باب تجريد القواعد، ولكنه لا ينبغي أن يؤخذ على أنه صورة صادقة للواقع اللغوي؛ لأن هذا الواقع يخالف عن كل هذه الشروط التحكيمية الصرفة، ولذا وجد نوعان من الدرس اللساني: اللسانيات التقريرية (deterministic linguistics) التي تفترض الأنموذج المثالي للاستعمال اللغوي، واللسانيات الاحتمالية (probabilistic linguistics) التي تُعنى بدراسة مظاهر التنوع والتخالف في السلوك اللغوي تبعاً للعوامل الفردية والاجتماعية والمقاماتية، ومن الواضح أن نحو الجملة ينتمي إلى اللسانيات التقريرية التي تجعل أمن اللبس غاية الاستعمال وقوام النظام، في حين يندرج نحو النص بلا شك في قائمة اللسانيات الاحتمالية؛ وذلك لارتباطه سبكاً وحكماً بمستويات الصياغة اللغوية المختلفة وبمعايير النصية، ولهذا لا يصلح فيه أن يكون أمن اللبس هو الغاية؛ لطبيعة النصوص الفعلية التي يكون اللبس فيها أحياناً كثيرة مقصوداً ويكون تعدد المعنى لديها وارداً ومصدر ثراء وإجادة أحياناً أخرى. وبناءً على ذلك يجب التوقف كثيراً عند قول تمام: إن نحو النص هو المرتجى لرفع التعدد والاحتمال من دلالات الآيات في القرآن الكريم، وما يعنيه ذلك من رفض فكرة صلاحية النص لإعرابين؛ لأن في ذلك اعترافاً بأمن اللبس، وحاشا لكتاب الله أن يكون مُلبساً. وقد رد سعد مصلوح على هذا بقوله: "نعم، لا مناص من التوقف طويلاً أمام هذه العبارة وتحرير دلالتها حتى لا يكون أمرنا علينا عُمة؛ ذلك أن التعدد والاحتمال في اجتهادات البشر لاستكناه معاني الآيات ثابتان بيقين تعدد تفاسير المجتهدين منذ نزول القرآن المجيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لكن هذا التعدد ليس من قبيل الإلباس المعيب، وحاشا لكلام الله أن يكون كذلك، بل هو حاصل الاجتهادات البشرية التي تحاول الفهم عن مُراد الله بكلامه. وكل اجتهاد من أهل العلم والراسخين فيه من أولي الأهلية يقبله لسان العرب، ولا يخالف معلوماً من الدين بالضرورة، ويتسق مع قيم الدين وتعاليمه ومقاصده هو اجتهاد مقبول في هذه الحدود لا يتعداها... والاحتكام إلى نحو الجملة أو إلى نحو النص- في هذا المقام- لا يعدو أن يكون هو نفسه نوعاً من الاجتهاد لأهل العلم، يمكن أن يكون محلاً للرفض أو القبول أو الترجيح" (مصلوح، ٢٠٠٤/٢: ٢٣٩-٢٤٢).

٢_ ١ ضبط المفاهيم والمصطلحات

من المفاهيم التي جلاها سعد مصلوح مفهوم "نحو النص"، فقد بينه تفصيلاً بقوله:

"نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة، تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة، بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة intra sentential constituents . وتشمل علاقات ما وراء الجملة مستويات ذات طابع تدرجي، يبدأ من علاقات ما بين الجمل intersentential relation ، ثم الفقرة paragraph، ثم النص text (أو الخطاب discourse) بتمامه" (مصلوح، ١٩٩٠: ٤٠٧).

وقد ترتب على ذلك أن يكون تصور النحو بمعنى "علم تراكيب الجمل" (Syntax) أو بمعنى قواعد العربية صوتية وصرفية ونحوية ودلالية بعيداً عما يراد بنحو النص، خاصة الأول، وأن يكون تصور النحو بمفهوم أعم وأشمل يعتضد بالمقاميات- كما بدا في التراث العربي في علم المعاني خاصة- أقرب هذه التصورات إلى الوفاء بأشراط النحو الكامل وأرقاها في هذا الإطار، ومع ذلك، تُعدّ هذه التصورات جميعاً دون المراد؛ لأنها تدور في فلك الجملة، ونحو النص ينبغي أن يكون مقامياً وذا جهاز "تحليلي مركب قادر على أن يصف التركيب اللغوي للنص أو الخطاب. ويمثل إطاره النظري بحسب التعريف الذي نرتضيه" تحصيلاً لجميع العوامل المهمة في تشكيل المعنى الكلي (Abstraction) الذي يجري تصويره واستنثارته من خلال خطاب أو نص منطوق أو مدون، أيّاً ما كان حجمه" (مصلوح، ١٩٩٠: ٤١٨).

ولكي يستطيع الإطار النظري لنحو النص القيام بمهمته في وصف البنية الكلية للنص لا بد من خصائص وأشراط جامعها أمور خمسة:

أولها: استبدال الغاية التشخيصية الوصفية بالغاية المعيارية. وثانيها: استبدال المعالجة النظامية (Systematic) بالمعالجة الذرية التفقيتية (Atomic). وثالثها: هرمية العلاقة بين مستويات التحليل اللساني والمكونات التركيبية للنص. ورابعها: التخلي عن ثنائية الشكل والمضمون، دون إهدارهما أو التجاوز فيهما، ومراعاتهما معاً، وإعمال الضوابط التحليلية الكاشفة عن طرق العلاقة بينهما أو كيفية تفاعل كل منهما في الآخر. وخامسها: شمول الاعتبارات الأسلوبية والمقامية والثقافية، بوصفها جزءاً من الجهاز التحليلي الذي يجري إعماله في دراسة النص (مصلوح، ١٩٩٠: ٤٢٠).

١٩٩٧: ١٤٧)، ويرتبط ببحث هذه الجوانب ضرورة الإجابة عن أسئلة محورية من قبيل: كيف تُنتج النصوص؟ وكيف تُستقبل؟ وكيف تُستخدم في سياق؟ بل كيف تستخدم وتوظف في التفاعل الإنساني؟ ولذلك كثرت نظريات علم النص واجتهد في ذلك كثيرون منهم درسلي ووجراندي وبيتر هارتمان وأيزنبرج وبتوفي وشميت وسوينسكيوفنديك وروزنجرن، واختلفت الاتجاهات والرؤى بين اهتمام بمعايير النصية أو الأسس التوليدية أو التداولية أو العناية بالنظرة الموسعة إلى بنية العالم أو الحفاية بالعناصر النحوية والدلالية والخصائص البلاغية (انظر بحيري، ١٩٩٧: ٧٣-٨٦).

إن نظريات علم النص هذه يتحتم علينا أن نفيد منها، لكن بشرط أن يقودنا ذلك إلى صياغة نظرية عربية في نحو النص تناسب لغتنا وبيئتنا العلمية والثقافية، حتى لا يتحول الأمر إلى تيه ثقافي، وحتى لا نكره النص العربي على معايير اشتقت من لغات أخرى لا تناسبه (انظر بحيري، ١٩٩٧: صفحة ٥، وحمودة، ٢٠٠٣: ٣٤٩-٣٥٢). ومن هنا ندرك أهمية الإسهام العلمي لنحو النص الذي قدمه سعد مصلوح، ونحن من خلاله يمكن أن نستنتج أسساً قوية وخصائص فارقة ترسم ملامح أولية ومقدمة لنظرية عربية في هذا الإطار "وما أصعبها من مهمة ولكن شرف المطلب يغري بالمحاولة، ويحفز إلى الدراسة الصابرة التي لا يستقل بها فرد أو أفراد" (مصلوح، ١٩٩٠: ٤٢٢).

وهذه الخصائص والملامح نحاول أن نتبينها ونقّب عنها، من خلال المسائل الآتية المتعلقة بالتصنيف والتعريف والمفاهيم والأسس والمصطلحات والأطر والتصورات والعلاقة بين نحو النص والبلاغة والأسلوبيات.

وأول ملحوظة نذكرها في هذا الشأن تتصل بجوهر علم النص، وهي يتبنى دراسة اللغة في الاستعمال؛ ولذلك فهو- كما نقلنا عن سعد مصلوح في موضع سابق- يُعدّ من اللسانيات الاحتمالية التي تولى عنايتها للنظر في تجلي اللغة في الواقع، حيث يستعملها الناس إنتاجاً وتلقياً في سياقات متنوعة تختلف تبعاً للعوامل الفردية والاجتماعية والمقاماتية، على عكس اللسانيات التقريرية التي تتجاهل التنوع لأنها تُعنى بالوصول إلى الجوامع اللسانية المشتركة المجردة التي تفسر عمل العقل في اللغة وعمل اللغة في العقل (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/أ: ٢٣٧، ومصلوح، ٢٠١٠: ١٨١، وبحيري، ١٩٩٧: ٢١٨، ٢١٩، وعبد المجيد، ٢٠١٣: ٢٧٠/١).

٢_٢ أهمية نحو النص

تتضح أهمية نحو النص في قول سعد مصلوح "إن دراسة النصوص هي دراسة للمادة الطبيعية التي توصلنا إلى فهم أمثل لظاهرة اللغة؛ لأن الناس لا تنطق حين تنطق، ولا تكتب حين تكتب - جملاً أو تتابعاً من الجمل، ولكنها تعبر في الموقف اللغوي الحي من خلال حوار معقد متعدد الأطراف مع الآخرين، ويكثر في هذه الحال تصادم الاستراتيجيات والمصالح وتعقد المقامات... وتتشابك العلاقات في نسج معقد بين الشكل والمضمون على نحو يصبح فيه رد الأمر كله إلى الجمل أو نماذج الجمل تجاهلاً للظاهرة المدروسة، ورداً لها إلى بساطة مصطنعة تخل بجوهرها" (مصلوح، ١٩٩٠: ٤١٣). إذن الفهم الأمثل للظاهرة اللغوية هو الغاية التي تكمن فيها أهمية نحو النص عند سعد مصلوح. ومعنى هذا أن نظريته في نحو النص تركز على الفهم وتفسير النص ولا تدخل قضية إنتاجه في الحسبان. ولا بأس ولا إشكال في ذلك إذ يبدو أن جانب فهم النص وما يتصل به من نظريات التلقي والتأثير وغيرهما قد شغل حيزاً كبيراً من موضوع نحو النص (انظر بحيري، ١٩٩٧: الفصل الرابع (الخاص بفهم النص) من الباب الثاني ص ١٦٢-١٩٠)؛ اتساقاً مع قديم تاريخ البحث في ذلك بالقياس لدراسة عمليات الإنتاج التي تعد الأحدث عهداً (انظر هاينه من وفيهيجر، ١٩٩١: ١٥٣، وانظر في كون "إنتاج النصوص" مهمة عظيمة قسيمة لمهمة الفهم والتفسير: السابق ١١١ وما بعدها، وبحيري، ١٩٩٧: ١٣٥، ١٣٦)، كما يبدو أن التركيز على غاية التفسير والفهم ربما يكون قد طغى في الدراسات العربية لنحو النص بوصفه المرحلة الأولى المناسبة للنقل الأولي للنظرية من الغرب، يقول صلاح فضل: "وتتمثل مهمة علم النص بناء على ذلك في وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة" (فضل، ١٩٩٢: ٢٤٧).

٢_٣ النحو العربي بين "الجملية" و"النصية"

في سبيل تحديد المسافة الفاصلة بين النحو العربي والأنموذج المبتغى، وُضِع سعد مصلوح أولاً معيارين ضابطين: الأول: أن النحو العربي ليس هو اللغة العربية، ومعنى هذا أن أي محاولة لإصلاح هذا النحو أو استبدال آخر به لا يمكن أن تعني هدم اللغة العربية بقرآنها وتراثها العريق. والثاني: أنه ليس من المعقول على جميع المعاصرين المشتغلين بقضايا اللسانيات العربية، أن يبدؤوا بنقطة الصفر المنهجي،

وثمة مسألة مهمة تُطرح هنا هي موقع "نحو النص" من النظرية اللسانية. وفي هذا الإطار قيل إن الشوط ما زال بعيداً دون أن يكون هناك نحو نص شامل يصدق على أي نص في أي لسان. أما بالنسبة إلى لغة معينة فهناك ما يمكن تسميته "نظام النص" (الخطاب) Text Systems (Discourse) وهو تصور عام يقصد به قوائم التوقعات والتشكيلات المحتملة التي يتيحها نظام اللغة وتمثل الخصائص النحوية لهذه اللغة. وفي مقابل ذلك هناك ما يمكن تسميته "بنية النص" (الخطاب) Text Structure (Discourse) وهو تصور خاص يُقصد به حاصل شبكة العلاقات الناتجة من تضافر نظم النص بمستوياتها المختلفة لتشكل بنية نص معين "وكلا هذين التصورين واقع تحت التصور الأعم "نحو النص". ويبدو من هذا التعريف الإجرائي السابق أن التصور الأول يعالج الخصوصية التركيبية للغة بعينها في مجال النص، على حين يلبي التصور الثاني الحاجة إلى تشخيص البنية النحوية لنص بعينه" (مصلوح، ١٩٩٠: ٤٢١، ٤٢٢).

وأهم مبادئ نحو النص المعايير السبعة التي يكون بها النص نصاً. وهي السبك cohesion والحبك coherence والقصد intentionality والقبول acceptability والإعلامية informativity والمقامية situationality والتناص intertextuality (Beaugrande & Dressler 1981: pp. 48-208, Beaugrande, 1985: pp. 48, 49). ومما يُسبب لسعد مصلوح في هذا الشأن الإسهام الواضح في تحرير ترجمة هذه المصطلحات وصياغتها وضبط مفاهيمها وإيضاح المقصود بها. ويصدق ذلك خاصة على المصطلحين الأولين (قُدِّمت ترجمات أخرى كثيرة للأول (cohesion) أهمها: الاتساق والتضام والالتئام والترابط والربط والتماسك الشكلي، كما قُدِّمت ترجمات أخرى للمصطلح الثاني (coherence) أهمها: الانسجام والتقارن والاتساق والالتحام والتماسك الدلالي. انظر علوي، ٢٠١٣: ٣٢٧/١. وأظن أن ترجمة المصطلح الأول (السبك) كان لها تأثير على اختيار تمام حسان لهذه الترجمة في ترجمة كتاب "النص والخطاب والإجراء". ومما يُذكر في قضية ترجمة المصطلحات أيضاً عند سعد مصلوح تفضيله ترجمة مصطلح (pragmatics) إلى "المقاميات". انظر مصلوح، ١٩٩٠: ٤١٨، وبحيري، ١٩٩٧: ٣١٣ "حاشية ٧١"، وقد سبق بيان جزء كبير من ذلك عند الحديث عن معايير النص عند تمام حسان.

الحديث. انظر إبراهيم، ١٩٩٧: ١٦١). ومعنى ذلك أن العلاقة بين هذه الثلاثة مثلت- في مرحلة سابقة من التاريخ الحديث- مجالاً من مجالات التحول المعرفي بين العلوم، بدا فيها عدم كفاية البلاغة والأسلوبية وتحولهما إلى التوحد مع علم النص، حتى قيل إن علم الأسلوب قام بدور المبرر لعلم النص (انظر هاينه من وفيهيجر، ١٩٩١: ١٤، ٧٧)، وحتى أعلن فاندايك نفسه عن أن البلاغة هي السابقة التاريخية لهذا العلم (انظر فضل، ١٩٩٢: ٧، ١٠، ٢٥٠، ٢٥٣).

وعندما نريد أن نتناول هذه القضية بالتطبيق عملياً على "لسانيات النص" عند سعد مصلوح، فيجب ألا ننسى أولاً أن هذا شغل حيزاً مهماً من الإنتاج العلمي له (أهم ما يشمله ذلك كتبه الثلاثة: "الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية"، و"في النص الأدبي: دراسات أسلوبية إحصائية"، و"في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية")، وأنه أشار إلى أن علم الأسلوب وأجزاؤه النص هما أبرز الإسهامات اللسانية في مجال النقد الأدبي، وإن كانا لا يستغرقان كل عطائهما في ذلك المجال، مع الإقرار بموقع علم الأسلوب من اللسانيات، بأنه سواء علينا أعددنا علم الأسلوب شعبة من اللسانيات العامة على قول بعض العلماء، أم عددناه علماً قائماً برأسه موازياً لللسانيات العامة على قول آخرين، فإن علم الأسلوب يظل إسهاماً لسانياً منضبطاً يقوم بتقديم حل علمي لجوانب ذات خطر في الشكل النقدي (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/ب: ٢٣١). وسعد مصلوح يترجم هذه الإشارة إلى عمل وواقع؛ إذ إننا نستطيع أن نلاحظ ونُميز- ضمن ما يمكن أن يُلاحظ ويُميز عنده- اهتمامين أو اتجاهين علميين واضحين هما اتجاه الدراسات الأسلوبية واتجاه لسانيات النص، وكلاهما يمثل منحى لسانياً متقارباً بخاصة أنهما من اللسانيات الاحتمالية، لكن بمنهج مختلف، لذلك تتداخل الجزئيات وتتشابك المجالات والمعالجات، ومن أمثلة هذا ما نلاحظه في بحث "حاشية أسلوبية على لغة الخطاب النقدي"، حيث يتشابك الأسلوب مع النصي في كيفية معالجة مسائل البحث، من خلال تناول "خصائص الواسطة اللغوية الموصلة، سواء في بنيتها النحوية والمعجمية الظاهرة أو في منظومة المفاهيم والعلائق المستكنة وراء ظاهر الخطاب، على نحو يستدعي فيه بعضها بعضاً ويتعلق فيه بعضها ببعض" (مصلوح، ٢٠١٠: ١٩٤).

ومن أهم الإضاءات الكاشفة التي يقدمها سعد مصلوح في هذا الإطار تفريقه بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية من خلال وجوه كثيرة، منها أن البلاغة ذات طابع

ويهدروا أربعة عشر قرناً من النتاج اللساني المتميز، وإنما الحكمة تقتضي استثمار الصالح من العربي القديم بحيث لا يكون نسخاً للنحو العربي التقليدي المعروف، بالإضافة إلى الإفادة من الجديد بقدر ملاءمته وما يحل من مشكلات أو يسهم في تقديم رؤى منهجية متماسكة، سواء كان هذا الجديد من التراث الإنساني العام، أو المعاصر العربي، وأكثر الأعمال مناسبة وصلاحيّة في ذلك- كما سبق أن تبين- هو عمل تمام حسان ومحاولته الرائدة في كتابه "اللغة العربية: معناها ومبناها"؛ لأنه تقديم رصين متكامل لنحو الجملة يصلح لارتداد آفاق نحو النص.

وحين نحاكم النحو العربي بحالته التقليدية إلى الخصائص التي يتطلبها نحو النص سنجد بعض المعوقات التي تحول دون استعماله في التحليل النحوي للنصوص، ويتمثل ذلك في: أن النحو العربي موضوع لتحليل الشاهد والمثال وشواهد النحو هي موضوع الدراسة فيه، وغلبة الطابع التعليمي فيه حدّت من القدرة على التحليل الخالص للظواهر، وعدم اعترافه بفكرة التطور، وتهميش مراعاة المقام في القواعد باستثناء بعض كتب المتقدمين كسيبويه (انظر مصلوح، ١٩٩٠: ٤٢٢-٤٢٧).

٢_ ٤ نحو النص عند سعد مصلوح بين البلاغة والأسلوبيات:

لهذه المسألة أهمية بارزة هنا لأنها من أهم الأمور التي تميز الرؤية الخاصة للدكتور سعد في لسانيات النص، وهي طبيعتها متداخلة الاختصاصات جامعة لمجالات مختلفة، والتداخل يكون أكثر فيما بينها وبين البلاغة وعلم الأسلوب (انظر شبلنر، ١٩٧٤: ٥١، ١٧١، ١٨٣). من آيات ذلك وجود إرصاصات بتمييز الظواهر النصية في البلاغة وعلم الأسلوب، منذ وقت طويل في البلاغة الكلاسيكية. ولكي يتضح الفرق الدقيق بين هذه المجالات الثلاثة، نبادر أولاً إلى التفريق بين علم الأسلوب والبلاغة الجديدة فنقول إن الفرق بينهما هو الفرق بين الخاص أو الحالة الفردية الواقعية، والعام أو القانون الجامع المجرد، فالأسلوب يكون فردياً، ثم من مجموع خصائص الأساليب المختلفة يُصاغ تعميم وتجريد يُصنّفان في صورة القوانين التي تمثل دائرة البلاغة (انظر فضل، ١٩٩٢: ١٧٨، ١٧٩). ومن الناحية التاريخية نجد أن الأمر قد تدرج بين هذه المجالات أو العلوم الثلاثة، بدءاً بالأسلوبية التي مهدت لبلاغة الخطاب وأدت إليها، ثم أسفرت هذه عن تبلور علم النص (قيل إن "الأسلوبية" ضرب من البلاغة المعاصرة لا تنسخ البلاغة القديمة نسخاً، ولكنها تفيد منها وتنتفع بها كما تفيد وتنتفع بغيرها من معطيات الدرس

مسائل المنطق والفلسفة وتجفيف مباحث البلاغة بالعبارة
بوضع الحدود والأقسام (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٩-٣٨).

ومن أهم وجوه الرد المجمع على ذلك أن الكتاب- كما
وضعه صاحبه- ثلاثة أقسام: الأول في علم الصرف،
والثاني: في علم النحو، والثالث: في علمي المعاني
والبيان، وقد وضع مع هذه الأقسام ملاحق تتعلق بها
كالفصول التي عقدها لعلم الاستدلال وعلم الشعر (انظر
السكاكي، ١٩٨٣: ٦-٩، ٤٣٥، ٥١٥). إن السكاكي كان يريد
من ذلك أن يؤلف بنية متماسكة ويضع نظرية متكاملة
متتابعة الأجزاء، سماها "علم الأدب"، هذه النظرية تصلح
في حال انتظامها وتماسكها ولا تصلح في حال تفرقتها
وانفراط عقدها، لكن الذين جاءوا بعده أخطؤوا لأنهم
تشبثوا بالقسم الثالث من الكتاب (قسم المعاني)، واحتشدوا
لشرحه أو تحشيطه أو تلخيصه أو نقده، كما لو كان مقطوع
الصلة بما سبقه وما لحقه من حديث، وصاغوا منه ثلاثية
المعاني والبيان والبديع وجعلوا منه كتاباً في البلاغة،
وصرفوا الأنظار عن الثلاثية الأصلية للكتاب (انظر
مصلوح، ٢٠١٠: ٥٠-٦٠).

إذن لكي نفهم جانباً مهماً من التوافق والتخالف في آنٍ
واحد معاً بشأن قضية الأسلوبيات ولسانيات النص عند
سعد مصلوح، نقول إنه- بناءً على ما سبق- يبين أن
صيغة البلاغة العربية التي قدمها السكاكي في كتابه
"مفتاح العلوم" هي أفضل صيغ البلاغة العربية التي
يمكن الاستفادة منها في الأسلوبيات المعاصرة وتأصيل
نظرية عربية فيها وتطويرها؛ وذلك من خلال استصفاة
صيغتين كبرى وصغرى من مذهب السكاكي، الكبرى هي
ثلاثية علم الصرف وعلم النحو وعلم المعاني والبيان مع
ما يلحق بهذه العلوم، والصغرى هي صيغة علوم البلاغة
الثلاثة التي تشمل خواص التركيب والمبحث البياني
والمبحث التحسيني. والصفة الجامعة بين الصيغتين هي
وقوعهما تحت ما يمكن أن يُسمى "أسلوبيات اللغة" وهو
المبحث الذي يدرس الطاقات الأسلوبية التعبيرية الكامنة
والمحتلمة في لغة معينة، وتقابلها "أسلوبيات النص"
وهي التحققات الأسلوبية ممثلة عملياً في نوع بعينه من
نصوص اللغة، و"أسلوبيات النص" توصف أيضاً بأنها
"أسلوبيات ذاتية" (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٧٣، ٧٤، ٨١،
٨٢). والملحظ المهم هنا أن سعد مصلوح أقام جدولته
الرئيس (وهو خاص بمستويات المعالجة في الأسلوبيات
اللسانية) في صيغته المستفيدة والمكاملة لصيغتي السكاكي
على أساس تقسيم منازلته إلى ثلاثة مستويات: المستوى

تفتيتي يُجزئ الظاهرة الواحدة، والأسلوبيات اللسانية ذات
طابع نظامي ونسقي يُعنى بتصورات البنية والعلاقات،
ويتجلى ذلك في فرق آخر هو أن البلاغة هي بلاغة
الشاهد والمثال والجملة المفردة على الأغلب وتعتمد نحو
الجملة، في مقابل أن الأسلوبيات تعالج النص أو الخطاب
أو المدونة وتعتمد نحو النص (انظر مصلوح، ٢٠١٠:
٦٧-٧٢). ولكي تتطور البلاغة وتسير في الاتجاه الصحيح
لا بد من القضاء على مبادئها للأسلوبيات اللسانية، بشرط
أن يصحب ذلك "حركة مواكبة من اللسانيات العربية
تكون بها ظهيراً قوياً للدرس النصي عامة، ولدراسة
النص الأدبي خاصة، وبذلك تتصل الأواصر بين الدرس
اللغوي والبلاغي في التراث والدرس الأسلوبي واللساني
المعاصر على نحو تتجدد به الأصالة، ويتحول به التراث
إلى قوة فاعلة في وعينا بالظاهرة الأدبية" (مصلوح،
٢٠١٠: ٧٢). إن هذه الحركة المفترضة الواجبة بين
تلك المجالات من البلاغة إلى الأسلوبيات اللسانية ومن
اللسانيات العربية إلى الدرس النصي- ليس معناها إلا
أن تكون الأسلوبيات اللسانية ولسانيات النص هما جسر
التواصل والتلاقي بين البلاغة القديمة ودراسة النص كما
ينبغي أن تكون. وهذا يؤكد ما ذكرناه في المدخل العام
لهذه القضية منذ قليل، من أن علم الأسلوب حلقة متوسطة
في تاريخ تطور العلوم بين البلاغة القديمة وعلم النص
وهو الوريث الأخير، غير أن ما يضيفه سعد مصلوح
هنا هو أنه يعطينا النموذج العملي المتجسد لهذا التطور
العلمي المتتابع بالتطبيق على العربية وتراثها وبلاغتها
القديمة وهي في اتجاهها نحو التحديث. ويزيد ذلك تأكيداً
أن ذروة هذا الربط والتطوير عنده وعمود هذه القضية
لديه ما طرحه خاصة تحت عنوان "حاشية عصرية
على مفتاح العلوم"، وهو بعض من زبدة مبحثه المنفرد
(مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية).

إن من أهم ما قدمه سعد مصلوح في قضية العلاقة بين
"البلاغة" و"الأسلوبيات اللسانية" وما يرتبط بذلك من
"لسانيات النص"، ما كتّف عنه النقاب من طرح جديد
أزال به الحصار الشهير حول كتاب "مفتاح العلوم" ورَفَع
به الإصر الذي رمى به كثيرٌ من البلاغيين المحدثين
وأهل التجديد صاحبه الإمام أبا يوسف يعقوب السكاكي
(٦٢٦ هـ)، من أنه هو المسؤول عما أصاب البلاغة
العربية بعده من جمود وجفاف وعمق. وحقيقة الأمر أن
المضمون الأساسي للكتاب زاغت فيه الأفهام وظنّت به
الظنون وغزل كثير منه عن سياقه الصحيح، ففُهم على
غير وجهه، وصُرفت أفكاره تلقاء الاتهام بالتعمق في

٣- مناقشة وملحوظات

ليس من شك في أن الإسهام القيم لسعد مصلوح في لسانيات النص أو نحو النص الذي حاولت أن أعرضه وأقدمه، يثير بعمقه ودقته وتركيزه واتساع رفقته أسئلة متعددة، ويفتح نوافذ كثيرة للحوار والنقاش. وإن ما تقدم- بخاصة الفقرة (١٢)- بيان لجهده، أظن أنه كشف كثيراً من جوانب إسهامه تنظيراً وتطبيقاً، وهو يشتمل على كثير من جمهرة مسائل الاتفاق معه، وتبقى بعض الملاحظ والتعليقات، أسوقها فيما يأتي لعلها تجلّي غامضاً أو تمثل إضافة وإضاءة أو تثير فكرة، عسى أن تكون أهلاً لما تحاوله من الوفاء العلمي لواجب المناقشة ولحق الحوار، وأنا أسوقها عاداً إياها أسئلة واستفسارات أكثر منها أن تكون إجابة.

٣- ١

ثمة ملحظ شكلي هو تفرق نشر الأبحاث الثلاثة لسعد مصلوح في لسانيات النص في كتب ثلاثة، بالرغم من أنها- كما تبيّن- أحمّة واحدة ذات شأن وخطر، وهي أقرب إلى تقديم رؤية شاملة لنظرية عربية في لسانيات النص تنظيراً وتطبيقاً. وبناءً على ذلك، أظن أنه كان من الأولى والأجدي لها وللقارئ معاً عصمة لها من مظنة التفرق وتشتيت أجزاء الكيان الواحد، وهي محفوظة ودائمة الوصال إن شاء الله- أقول أظن أنه كان من الأولى أن تُنشر معاً في المناسب من أحد الكتب الثلاثة، أو أن تُنشر- وهذا أفضل- في عمل مستقل، بحيث يكون ثقل ميزانها في القدر والقيمة معادلاً موضوعياً راجحاً بدرجات، على ما قد يبدو من صغر حجمها، حتى لو لم يكن ثمة إضافة حادثة هنا أو تحشية هناك، أو نحو ذلك مما يوجد به الفكر وقد تمليه معاودة النظر ويكون نماءً إضافياً حقيقياً في الشكل والمضمون. إن هذا الجمع في النشر لثلاثة الأبحاث هي جديرة به؛ لأن الباحث في نحو النص والقارئ عموماً لن يزيغ بصره عندئذ عن صواب متابعة ذلك وحق الحفاية به والإفادة منه. (تفرق أبحاث سعد مصلوح في نحو النص- برغم أهميتها القصوى- جعل بعض الباحثين- على ما يبدو- ليس عندهم فكرة عنها، ولذلك لم يشيروا إليها حيث كان ينبغي الإشارة. انظر مثلاً على ذلك في: (الميساوي، ٢٠١٣: ٢٦١/١، ٢٦٢).

٣- ٢

في إطار ما انتهى إليه سعد مصلوح من أن النحو العربي نحو جملة لا نحو نص بناء على المعوقات المنهجية

الأول: لسانيات النص (وهو مستوى عام يمثل أسلوبيات لغة)، والمستوى الثاني: لسانيات النص الأدبي (وهو مستوى خاص يمثل أسلوبيات نوعية، لكن للنص الأدبي بشكل عام)، والمستوى الثالث: لسانيات نص أدبي متعين- وهو مستوى أخص- (من الجدير بالذكر أنه تحت كل مستوى من هذه المستويات الأفقية تدرج طائفة من المستويات الرأسية، كلٌّ على حسب ما يخصه من مستويات: الصوتيات والرسم والصرف والتراكيب والدلالة والمقاميات). وقد ورد التعقيب الآتي بعد الجدول مباشرة: "وإذا تجاوزنا عن فكرة لسانيات النص، وهي فكرة ليست مطروحة الآن فضلاً عن أن تُطرح في القديم، وتأمّلنا المجالات التي أسهمت فيها نظرية السكاكي بنصيب، فنلاحظ أنها مست محدّدات مهمة في دراسة أسلوبيات اللغة وأسلوبيات النص الأدبي" (مصلوح، ٢٠١٠: ٧٥، ٧٦). إن هذه الإشارة إلى "لسانيات النص"، حتى لو كانت بالسلب والنفي، فهي لا تخلو من معنى التأجيل والإرجاء إلى مقام آخر، ولا تنفي تلاحم التقسيم السابق وما يتبعه من تحليل لسانيات النص، وهذا ما أكدته الإشارة الواردة في ختام تناول جهد السكاكي، من أن من أهم الأفاق التي ينبغي أن تُستشرف ترتيباً ومتابعة لما بُني من نظرية السكاكي: "الانتقال بالتحليل اللساني من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص" (مصلوح، ٢٠١٠: ٨٠).

ومن خلال هذه العلاقة الواضحة عند سعد مصلوح بين لسانيات النص والبلاغة والأسلوبيات اللسانية- وقد بدا هذا أيضاً في مواضع أخرى كثيرة (من ذلك القول بأن التراث البلاغي والنقدي توجد فيه بعض الظواهر المتفرقة للاعتماد النحوي بالمفهوم الشامل، ولعل في التراث البديعي من الثراء والخصوبة ما يحفز إلى دراسته من هذه الناحية (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٣٧)، كما أن تأصيل نحو العربية بالحفاية بصيغ النحو المقامي في العربية يمثل حلاً من حلول إشكال الخروج من نحو الجملة إلى نحو النص. (انظر مصلوح، ١٩٩٠: ٤٢٧، وبحيري، ١٩٩٧: ٢٩٣، حاشية ٦٠)- أقول: من خلال هذه العلاقة الواضحة نلاحظ أن نحو النص عنده من حيث الشكل يُعنى في المقام الأول بالنص الأدبي. وهذا وجه من وجوه نظرية نحو النص التي تراعي في الأصل جميع أشكال التواصل دون تمييز، خلافاً للبلاغة والأسلوبية (انظر بحيري، ١٩٩٧: ٦٧، وانظر في أنواع أنبوية النصوص بتفصيل أكثر في: فان دايك، ١٩٨٠: ٢١٩ - ٢٥٦)، وهذا التوجه في نحو النص إلى "تحليل النص الأدبي" يختلف كذلك عن توجه آخر مهم هو "التحليل النقدي للخطاب" أو "تحليل الخطاب لسانياً واجتماعياً". (انظر فاركلوف، ٢٠٠٣: ٧-٢١).

إنني أرى أن ما ذهب إليه سعد مصلوح من نفي صفة نحو النص عن النحو العربي هو الصواب ما دمنا نقصد بنحو النص مجمل نظريته الغربية الحديثة، ولعل توسيع الشاوش في دراسته دائرة مفهومه عن النحو ليشمل النحو والبلاغة (انظر الشاوش، ٢٠٠١: ١٨/١) - وهو أمر غير مقبول منهجياً - مما أذهبه إلى رأيه. وخلاصة قولني في هذه المسألة - بالإضافة إلى الأخذ برأي سعد مصلوح - ما استظهرته في أبحاث سابقة لي من أن النحو العربي كانت له ثلاثة مواقف من النص: موقف توثيق، وموقف استشهاد واحتجاج وتقعيد، وموقف تطبيق، وأن عدم عدّه نحو نص بمقياس نظرية النحو الحديثة لا يبخسه حق اشتماله على مظاهر ومعطيات نصية كثيرة (انظر حامد، ٢٠٠٩: ٦٢، ٦٣) من أهمها احتواؤه على نحاة نص ستة كبار، كانت لهم جهود نصية لا تُنكر، وهؤلاء هم - بناء على معايير محددة - ابن جني (٣٩٢هـ) وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١ أو ٤٧٤هـ) والزمخشري (٥٣٨هـ) وابن مالك (٦٧٢هـ) وأبو حيان (٧٤٥هـ) وابن هشام (٧٦١هـ). (انظر حامد، ٢٠١٢: ٥٠٨، ٥٠٩، وحامد، ٢٠١٢/ب: ١٣٣ وما بعدها).

٣ - ٣ (ثابت الوزن ومتغير الإيقاع)

من أهم ما قدمه سعد مصلوح في بحث "نحو آجرومية للنص الشعري" ما ورد تحت عنوان "ثابت الوزن ومتغير الإيقاع" وربطه بالرد على تهمة اتهام الأوزان العربية بالرتابة والجمود والقصور عن استيعاب التجارب الإنسانية وتصوير خصوصيتها. وخلاصة ذلك أن الوزن العروضي الذي جاءت عليه القصيدة - وهو إحدى صور مجزوء البسيط - يشتمل كل شطر فيه على ثلاث تفاعيل منها اثنتان لـ (مُسْتَفْعَلُن) أتاحتا صوراً كثيرة من التغييرات التي كسرت رتابة النغم. والنمط العام الذي جاءت عليه القصيدة هو المبيّن في الجدول الآتي:

الخمسة التي ذكرناها (كونه موضوعاً لتحليل الشاهد والمثال، وغلبة الطابع المعياري عليه، وعدم اعترافه بفكرة التطور، وهامشية مراعاته للمقام في غير كتب المتقدمين، وافتقاده خاصيتي النظامية والهرمية) يجب أن نشير إلى رأي آخر مهم في هذه المسألة ورد في أطروحة محمد الشاوش المطولة، حيث تبنى وجهة نظر خلاصتها أن النحو العربي ليس في حاجة إلى نحو نص؛ لأنه نحو شامل صالح لأن يكون نحو نص ونحو جملة، وهذا نص كلامه: "وجميع هذه الأصول وما شابهها مما فصلنا الحديث عنه في عملنا تُبيّن أن المنوال الذي وضعوه (أي النحاة العرب) منوال صالح لنحو الجملة ولنحو الجمل، وهو بالتالي منوال مُغْنٍ عن إقامة نحو نص أو علم نص مواز له. ومن هنا تدرك تأكّد حاجة الذين ورثوا عن (هكذا) الأنحاء الغربية والنظريات اللسانية الحديثة إلى البحث عن نحو النص، وِغْنَى مَنْ يصدر عن النظرية النحوية العربية عن الأخذ والاعتباس". (الشاوش، ٢٠٠١: ١٢٧٤/٢) يؤكد هذا الفهم أنه يرى أن حركة الفكر اللغوي العربي القديم مع الفكري الغربي الحديث سمتها المد والجزر ويحكمها قانون الدور لا التسلسل، فالفكر اللغوي العربي يمثل حلقة أولى واسعة للنحو شملت: الجملة والنص والمعنى والتخاطب والمقام والاستعمال، ثم تلا ذلك حلقة للدراسات اللغوية الغربية امتدّت تاريخها إلى فترة ما قبل ظهور نحو النص وتحليل الخطاب في الستينيات، وهي حلقة شملت نحو الجملة فقط، وقد أعقب هذه الحلقة حلقة غربية ثالثة بعد السبعينيات مثلت طور تفشي التداولية ونظريات النص والخطاب مع العناية بعلم الدلالة ونظرية القول والاستعمال (انظر فان دايك، ١٩٧٧: ٩-١٣)، وفي هذا دليل على قيام الحلقة الأولى العربية على الإدماج والشمول في مقابل اعتماد الحلقتين الغربيتين الثانية على الإقصاء والثالثة على الفصل والتقسيم (انظر الشاوش، ٢٠٠١: ١٢٨٦/٢، ١٢٨٧).

تفاعيل الشطر الثاني			تفاعيل الشطر الأول		
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	مستفعلن	فاعلن	مستفعلن
لها احتمالات مختلفة من الخَبْنِ والطَيِّ واجتماعهما	عمود النغم وهي ثابتة	لها احتمالات مختلفة من الخَبْنِ والطَيِّ واجتماعهما	لها احتمالات مختلفة من الخَبْنِ والطَيِّ واجتماعهما	عمود النغم وهي ثابتة	لها احتمالات مختلفة من الخَبْنِ والطَيِّ واجتماعهما

فيها وثوق كبير؛ لأن النسخة التي اعتمد عليها المحقق - مع نظائرها - هي نسخة بخط التبريزي نفسه، وهذه الرواية - كما ذكر المحقق - هي الرواية المعتمدة في شرح الأنباري للمفضليات، قال قباوة: "وفي الأصل: وحولت". غير أن التبريزي استدرك فأثبت في الحاشية مصوباً: "وتحولت" وأكدها بكلمة "صح". وهذه هي الرواية المعتمدة في نسخ الأنباري والمفضليات بكبرل والمتحف البريطاني وفيينا، إلا أن ناشر الأنباري أثبتها "وحولت" ليقوم عروض العجز، خلافاً لما في الأصول التي اعتمدها (التبريزي، تحقيق قباوة، ١٩٨٧: ١/١١١٤ [٥٨]).

ومما يؤنس بقبول ذلك كثير من الزحافات المركبة الشديدة في التفاعيل والبحور المختلفة، كأخبل (هو اجتماع حذف الثاني والرابع الساكنين، كما في "متعلن" من مستعلن)، والوقص (هو تسكين المتحرك الثاني ثم حذفه، كما في "مفاعلن" من "متفاعلن"). (انظر التبريزي، ١٩٩٤: ٤٤، ٦٤)، وأظن أن نظير تحول تفعيل في البسيط إلى تفعيل من الكامل عن طريق تحريك الثاني الساكن في "متفعلن"، تحول تفعيل من الكامل إلى تفعيل من الرجز عن طريق "الوقص" وصيرورتها (مفاعلن) لأنها تساوي (متفعلن).

٣_ ٤ (ملحظان يتعلقان ببحث المذهب النحوي عند تمام حسان)

الملحظ الأول في ذلك ملحظ شكلي لكن له دلالاته، ويتمثل في أن سعد مصلوح لم يشير إلى تاريخ محاضرة تمام حسان "نحو الجملة ونحو النص"، وهي الموضوع الأساسي للبحث، وتاريخ المحاضرة يعود إلى سنة ١٩٩٢م [١٤١١هـ] (هذا ما ذكره عبد الرحمن العارف. انظر العارف، ٢٠٠٢: ص ٢٧، وقد أشار عبد الرحمن أيضاً إلى أن المحاضرة من الأعمال التي لم تنشر. وفي صورة المحاضرة المخطوطة نفسها بخط تمام حسان - على ما نقلناه وصورناه من بعض أساتذتنا - مكتوب هذا التاريخ: ١٩٩٥. وأياً يكن التاريخ فالمحاضرة لم تنشر، يؤكد ذلك أيضاً مراجعة كتاب تمام حسان "مقالات في اللغة والأدب" بجزيه، والأول خصص لما كان قبل سنة ١٩٨٥، والثاني خصص لما بعد ذلك إلى سنة طبع الكتاب كاملاً وهي سنة ٢٠٠٦). ولهذا التاريخ أهمية؛ لأننا بمقارنته بتاريخ نشر كتاب تمام (مقالات في اللغة والأدب - عام ٢٠٠٦م)، نستنتج أنه كان ثمة مجال قوي لنشر المحاضرة ومع ذلك لم تنشر! ومقارنة تاريخ المحاضرة أيضاً بتاريخ صدور ترجمة تمام لكتاب (النص والخطاب والإجراء) - وهو عام ١٩٩٨م - وكتابتة مقامة تعريفية طويلة للكتاب وموضوعه - يتبين أنه كان في هذا

وقد اختبرت القصيدة وروجعت من هذه الزاوية بشكل شامل عملي دقيق، مع استخدام ما لزم من الجداول والأشكال والرموز، فتبين من خلال ذلك اختلاف أنماط الوزن وصور التفاعيل في كل الأبيات وأقسام القصيدة الخمسة، بالنظر إلى مجموع الشطرين، كما تبين ما شاع من أشكال التفاعيل وما لم يشع (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٥٠-٢٥٢)، ومن ثم تجلّى أنه كان في هذه الصورة من مجزوء البسيط كسر لرتابة الانتظام، وإتاحة المجال لأكثر من تشكّل نغمي يخلد توقع الأذن ويغذي عنصر المفاجأة.

وقد تبين أيضاً أن القسم الأخير (الخامس) من القصيدة الذي يمثل ذروة التحولات المأساوية في النص - تبدي فيه صور النغم قدراً واضحاً من التنوع بتردد واضح لبعض التحققات وانخفاء بعضها الآخر، بل يكسر الوزن بالتحول إلى تفعيل من الكامل، وبهذا تبعد الشقّة - في رأي سعد مصلوح - بين ثابت الوزن ومتغير الإيقاع، ويعدّ الخروج في هذه التفعيلة أكبر دليل على ذلك، والتفعيلة المقصودة وردت في قول الشاعر:

بينا أخو نعمة إذ ذهبّت وتحولت شقوة إلى نعيم

فقوله "وتحولت" على وزن (متفاعلن) (انظر مصلوح، ٢٠١٠: ٢٤٨-٢٥٣).

وفي رواية المفضليات (انظر الضبي، ١٩٧٩: ٢٤٩) ورد اللفظ بهذه الصورة: "وحولت"، وهو بذلك مقبول ولا كسر فيه؛ لأن التفعيلة عندئذ ستكون (متفعلن) بالخبن، وهي منسجمة تمام الانسجام مع بحر القصيدة، ولا عيب فيها. وإذا تساءلنا عن عدم الأخذ بهذه الرواية القوية التي لا إشكال ولا خروج فيها عن الوزن، فربما يكون الرد على هذا أن التبريزي لا يقل متانة وقوة في الرواية عن المفضل الضبي، وأما عن غرابة ذلك التغير العروضي (وهو تحول مستفعلن إلى متفاعلن) وندرته وأنه - في حدود ما يُعلم - لم يرد له نظير، فيمكن أن يقال: إن هذا بالفعل لم يرد، ولكن يكفي أن الفكرة العامة - وهي خرق التفعيلة بشكل ظاهر أو حاد كالخرم وغيره - معروفة ووارد لها أشكال مختلفة. وقد يؤيد هذا أيضاً أن الرواة عند التدوين - كما هو مشهور ومعلوم - غيروا كثيراً ليصلحوا ما بدا لهم خارجاً عن الصحة التامة في وزن الشعر وغيره، وأن معلقة عبيد بن الأبرص مما نجا من إصلاح الرواة، وهذا يثير قضية "الشفاهي والمدون" وهي قضية بالغة الخطورة في تدوين نصوص العربية (انظر عيد، ١٩٧٦: ٤٣ وما بعدها). وبالرجوع إلى التبريزي نفسه في كتابه "شرح اختيارات المفضل" - بتحقيق فخر الدين قباوة - نجد أن هذه الرواية

١٩٩٧] والترجمات، وله منها أكثر من ثلاث. انظر علوي، ٢٠١٣: ٣٠٨/١، ٣١٣) ومحمد مفتاح (ارجع إلى كتابه «دينامية النص: تنظير وإيجاز»- ١٩٩٠، وكتابه «المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي»- ١٩٩٩، وكتابه «تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص»- ط٤ ٢٠٠٥). وقيمة أعمال هؤلاء وغيرهم (من الأعمال التطبيقية التي لا ينبغي أن يُغفل عنها ما قدمه محمد حماسه في تحليل نصوص الشعر بشكل عام، ومن ذلك ما ورد في كتابه «الإبداع الموازي: التحليل النصي للشعر») ترجع إلى خصوصية الإسهام الذي قدموه وتميزه وريادته كمّاً وكيفاً أو كيفاً فقط. وسعد مصلوح معدود في زمرة هؤلاء، بل في مقدمتهم بإسهامه الذي بيناه، المحدود كمّاً شديد التميز كيفاً وريادة. وآية ذلك إفادة كثير من الأساتذة والباحثين من بحثيه الراندين («العربية من نحو الجملة إلى نحو النص» و«نحو آجرومية للنص الشعري») وتجلي آثار ذلك فيما قدمه هؤلاء المقتفون واهتدوا به ورسموه من نهج نصي واضح. ومن آيات تميز إسهامه أيضاً الالتفات إلى قيمة سُهْمته وربطها بما أنجزه آخرون وعقد مقارنة في هذا الإطار، على نحو ما فعل جميل عبد المجيد عندما جمع وقارن بين سعد مصلوح (في بحثه «نحو آجرومية للنص الشعري») ومحمد خطابي (في كتابه «لسانيات النص») وصلاح فضل (في كتابه «بلاغة الخطاب وعلم النص»)، على أساس أن هذه الأعمال الثلاثة أبرز تجليات علم النص في الدراسات النقدية العربية الحديثة، وأنها أكدت أهمية هذا العلم وفتحت آفاقاً بحثية من شأنها إحداث نقلة نوعية ومهدت السبيل في ذلك (انظر عبد المجيد، ٢٠١٣: ١٥٦، ١٧٢). ومن بين هذه الأعمال الثلاثة يُعدّ بحث سعد مصلوح ودراسة خطابي أول دراستين في نقد الشعر، صدرتا في عام واحد (١٩٩١)، وقد ركزت الدراستان على بعض مفاهيم علم النص واختبارها، وهي المفاهيم المتصلة بترابط النص ظاهرياً من خلال «السبك» (بمصطلح سعد مصلوح)، أو «الانساق» (بمصطلح خطابي) ومضمونياً من خلال «الحبك» (بمصطلح سعد مصلوح) أو «الانسجام» (بمصطلح خطابي)، مع ملاحظة أن خطابي يولي جل اهتمامه للترابط المضموني (الانسجام). (انظر عبد المجيد، ٢٠١٣: ٢٦٩/١، وعبد المجيد، ٢٠٠٣: ١٥٦، ١٥٧). وأما دراسة صلاح فضل فهي تقدم رؤية كلية لا تركز على التفاصيل بقدر ما تُعنى بالكليات والحديث عن النسق المعرفي، ولذلك فهي «تتسع سعياً إلى تأسيس وعي بالبلاغة الجديدة في نسقها المعرفي الخاضع لهيمنة «المعرفة العلمية»، وهي بلاغة تصب في دائرة الخطاب، وتذوب- في نهاية الأمر- في علم النص» (عبد المجيد، ٢٠٠٣: ١٥٦، وانظر: ١٦٩).

مجال آخر- على الأقل- للإشارة إلى المحاضرة أو بعض أفكارها، ومع ذلك لم يفعل تمام. كل ذلك يدفعنا إلى أن نتساءل: أكان لبحث سعد مصلوح (المذهب النحوي عند تمام... من نحو الجملة إلى نحو النص) المنشور أولاً في يوليو عام ١٩٩٩م والموجّه جملة وتفصيلاً لتحليل محاضرة تمام ونقدها- أثر في صرف الشيخ عن نشر محاضراته في كتابه «مقالات في اللغة والأدب»؟ ومن قبل ذلك: أكان لاطلاعه- إن كان قد حدث هذا- على بحث سعد مصلوح قبل نشره أثر في عدم الإشارة إلى المحاضرة في مقدمة ترجمة كتاب دي بوجراند؟ ربما يكون الأمر كذلك في الإجابة عن هذين السؤالين أو في أحدهما (من اللافت للنظر فيما يتعلق بتاريخ النشر أيضاً في هذه المسألة أن كتاب تمام المترجم- على ما يبدو- سابق بعام على نشر بحث سعد مصلوح، ومع هذا لم يشير (أي سعد مصلوح) إلى الكتاب، مع أنه كان حريّاً به أن يشير إليه وهو في صميم دائرة البحث. وتفسير ذلك في رأبي أنه لم يكن ثمة مجال لرجوع سعد مصلوح؛ نظراً لتزامن وقت نشر العملين، فمن المحتمل مثلاً أن يكون كتاب تمام قد نشر في أواخر عام ١٩٩٨، وأن يكون بحث سعد مصلوح (المذهب النحوي عند تمام...) قد سلّم للنشر لدى مجلة كلية آداب القاهرة في أول عام ١٩٩٩، وبهذا يصبح الفارق الزمني في الظاهر نوعاً من التزامن والاقتران يحول دون إشارة (اللاحق إلى السابق).

والملاحظ الثاني: أن تمام حسان في ترجمته كتاب دي بوجراند استبدل مصطلح «السبك» بمصطلح «التضام» الذي استخدمه في المحاضرة، كما استبدل- في الترابط المفهومي- مصطلح «الالتحام» بمصطلح «الانساق» (انظر دي بوجراند، ١٩٨٨ ترجمة تمام: ٨، ١٠٣). وهذا معناه أنه في المفهوم الأول (الترابط الرصفي على مستوى ظاهر النص) استعمل المصلح نفسه الذي رجحه واستعمله سعد مصلوح في بحثه، وهو «السبك». وهذا يرجح دقة ما اقترحه سعد مصلوح واحتمال تأثر تمام به في هذه المسألة.

٣_٥

عند التفكير في نحو النص في الدرس اللساني العربي تقفز إلى الذهن أعمال وأعلام من أهمهم محمد خطابي (راجع كتابه «لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب» الذي نشر أول مرة سنة ١٩٩١، وقد اعتمدنا هنا على طبعة ٢٠١٢) وصلاح فضل (ارجع إلى كتابه «بلاغة الخطاب وعلم النص»- ١٩٩٢) وسعيد بحيري (إسهام سعيد متنوع بين الدراسات [انظر كتابه: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات

إن هذا التعليق يعني أولاً ملحظين ربما يُردّان إلى جهة واحدة، الأول: عدم توظيف عناصر المقام بشكل عام، والثاني: غلبة الطابع البنيوي. وأول الجانبين مرده إلى المستوى التداولي الذي هو أحد المستويات الثلاثة المتكاملة للتحليل في لسانيات النص، والاثنتان الآخران هما: المستوى النحوي والمستوى الدلالي، يقول سعيد بحيري: "ينتقل مفسر النص بين هذه المستويات الثلاثة مستنداً إلى تصورات ومفاهيم وقواعد وقيود اصطلاحية ومعرفية، وتتأزر هذه المستويات لتقديم تفسير متكامل؛ إذ إن النحو يقوم بتحليل العلاقات بين العلامات في المستويين الألفي والرأسي، وتحلل الدلالة صلة العلامات بالمدلولات والواقع، وتعنى التداولية بتوصيل دلالات العلامات". (بحيري، ١٩٩٧: ١٤٧، ١٤٨). وبناءً على هذا نرى أن هذا المستوى مفقود في تحليل سعد مصلوح، وربما يرجع ذلك إلى ضيق السياق هنا وشح المعلومات التي تتعلق به.

والملاحظ الثاني الخاص بوصف دراسة سعد مصلوح بأنها يغلب عليها الطابع البنيوي- مقبول إذا كان المقصود بذلك «البنيوية اللغوية»؛ لأن هذا ما بينه سعد مصلوح عندما نفي عن نفسه أن يكون ناقداً بنيوياً، وأثبت أنه يدعو إلى البنيوية اللغوية؛ وردّ هذا إلى أنه من الصعب على من تشكلت شخصيته العلمية في مناخ التحليل اللغوي والصوتي بدقته ومنهجيته أن يتقبل البنيوية النقدية، وهي في جوهرها معنة في الذاتية ولا تعبر إلا عن رؤية كاتبها الخاصة، وإن بدت في مظهر عقلاني، (انظر مصلوح، ٢٠٠٤/ب: ٢١٣-٢٠٥) «أما البنيوية اللغوية فقد نجت من هذا الخطر بوضوح منطلقاتها المنهجية، وتميز مدارسها واتجاهاتها، وانضباط وسائلها التحليلية في جميع مستوياتها، وقد بلغ الانضباط غاية شأوه في علم الأصوات» (مصلوح، ٢٠٠٤/ب: ٢١٤).

وأيضاً ثمة ملحظ عام على مجمل مقارنة جميل بين إسهام الأعلام الثلاثة (مصلوح وخطابي وصلاح فضل) في نحو النص، وهو أنه كان من الأولى أن تكون المقارنة شاملة بحثي سعد مصلوح («العربية من نحو الجملة إلى نحو النص»، و«نحو آجرومية للنص الشعري») دون الاكتفاء بالثاني؛ لأن البحث الأول نظري والثاني تطبيقي، وإسهام د. خطابي يشمل الناحيتين معاً، وإسهام د. صلاح فضل نظري في المقام الأول، وبهذا تكون المقارنة أكثر دقة وشمولاً ومناسبة: نظراً بنظر وتطبيقاً بتطبيق، حتى لو كان بحثاً سعد مصلوح مُختصراً.

وتبقى في وجهة نظرنا وفي صحيح العلم المقارنة محكومة بما ينبغي أن يحكمها ويحكم تقويم النظريات وما يشبهها

ووحدة الموضوع في عملي سعد مصلوح وخطابي توجب وقفة نشير فيها إلى مجمل مقارنة جميل بين العمليين. وفي هذه السبيل يتبين لنا أن عمل خطابي في كتابه (لسانيات النص) يجمع بين التنظير والتطبيق، ففي التنظير تحدث عن الاقتراحات الغربية ممثلة في المنظور اللساني ومنظور لسانيات الخطاب وتحليله والذكاء الاصطناعي، كما تحدث عن المساهمات العربية من خلال بيان إسهام مجالات البلاغة والنقد الأدبي وعلم التفسير وعلوم القرآن. وفي مجال التطبيق أدمج بعض مستويات التحليل الغربية مع بعض مستويات التحليل العربية واستصفي منها أربعة أضاف إليها مستوى خامساً مراعاة لخصوصية الشعر، وبذا صاغ منهجاً للتحليل النصي للشعر مكوناً من خمسة مستويات هي: المستوى النحوي، والمعجمي، والدلالي، والتداولي، والمستوى البلاغي (التعالق الاستعاري). وقد جاء التطبيق على قصيدة أدونيس (فارس الكلمات الغربية). والتحليل اتسم في مجمله بسمات أفقدته الترابط والعمق غالباً، كالعناية بالجزئيات والإكثار من الكليات مع عدم الوعي بالنص أحياناً، والانفصال، وهو أخطر المآخذ على التحليل؛ لأنه حلل كل مستوى من المستويات الخمسة بشكل منفصل دون أن يرتب اللاحق منها على السابق. والخلاصة أن الدراسة إن لم تصب في التطبيق فقد أصابت في التنظير وحسبها كونها من الدراسات الرائدة في مجالها (انظر عبد المجيد، ٢٠١٣: ٢٨٤-٢٨٨، وخطابي، ٢٠١٢: ٨٥، ٢٠٩ وما بعدها).

وأما بحث سعد مصلوح «نحو آجرومية للنص الشعري»، فقد عُرضَ في هذه المقارنة وتبينت خلاصته بالإشارة إلى أهم ما جاء فيه من اعتناء باختبار معياري السبك والحبك وتطبيقهما على القصيدة، وما صحب ذلك من الحديث عن تقسيم النص وظاهرة الالتفات فيه ومعالجتها بطريقة ذكية، وكيفية تحليل المعاني والعلاقات والزمن، ثم ختم صاحب المقارنة ذلك بقوله: «وبعد، فإن الدراسة على الرغم من أنها في تحليل القصيدة- لم تُقم اعتباراً أو توظيفاً لأي من عناصر السياق الثقافي والاجتماعي والأعراف الأدبية في العصر الجاهلي (عصر القصيدة)، حيث انحصرت الدراسة أو كادت- داخل النص؛ مما يجعلها مطبوعة بطابع بنيوي إلى حد كبير، فإنها على الرغم من ذلك أثبتت كفاءة السبك والحبك بوصفهما معيارين من معايير النصية، كما فتحت أفقاً جديداً متمثلاً في إعادة النظر في النصوص الشعرية القديمة والظواهر البلاغية من منظور نصي» (عبد المجيد، ٢٠١٣: ٢٩٤/١، وانظر عبد المجيد، ٢٠٠٣: ١٦٨).

هذه الوشيجة بمذهب فاندايك غير مقصورة على جهد سعد مصلوح فقط، بل إنها سارية أيضاً على كثير من الأبحاث والدراسات العربية في لسانيات النص؛ ومن أهم أسباب ذلك تكامل أفكار فاندايك وكونه بمنزلة المنظر الأساسي للسانيات النص.

٣_٧

في رأي سعد مصلوح- وفي رأي كثيرين- أن عدم اعتراف النحو العربي بفكرة التطور ووقوف الاحتجاج باللغة عند منتصف القرن الثاني الهجري- من المآخذ التي تؤخذ على هذا النحو وتبعده عما يتطلبه نحو النص من خصائص (انظر مصلوح، ١٩٩٠: ٤٢٦، ومصلوح، ٢٠٠٤/١: ٢٢٢). وقد ناقشت هذه المسألة من قبلي في أحد أبحاثي، وكان كلام سعد مصلوح فيها مما استشهدت به على وجهة النظر المنتقدة للنحو، وخلاصة وجهة نظري واجتهادي في هذا الأمر أن ارتباط العربية بالقرآن جعل لها قانوناً خاصاً يدفع التطور، ويسم نظامها النحوي العام بشبه الثبات، في أسسه وخصائصه التي من أهمها الإعراب والجمع بين التصرف والإصاق والعزل وإن غلب عليه التصرف، وما يحدث من تغيير في بعض أنماط استعمال الأبنية الصرفية والنحوية لا يمس الجوهر، وأما مجال التطور والتغيير والحياة في العربية فهو المجال المعجمي (انظر حامد، ٢٠١١: ٥٩-٦٢).

٤_١٠ الخاتمة

٤_١

تبين لنا أن إشارة سعد مصلوح إلى نحو النص والدعوة إليه ولفت الأنظار إلى أهميته كانت دعوة باكرة ترجع إلى سنة ١٩٨٠ وهي متقدمة بالمقارنة بغيرها، كما تبين أن بحثيه المتتابعين (العربية من نحو الجملة إلى نحو النص سنة ١٩٩٠) و(نحو آجرومية للنص الشعري سنة ١٩٩١) أكدًا هذه الإشارة والدعوة بالتنظير والتطبيق، وأنهما يكادان يكونان متزامنين مع أعمال أخرى ظهرت في الفترة نفسها؛ وقد كان لهذين الباحثين- على وجه الخصوص- تأثير كبير ومثلاً مرجعية لكثير من الأبحاث والدراسات التي خلفتهما؛ وذلك لتمييزهما في طرح قضية نحو النص والتطبيق عليها.

٤_٢

أبحاث سعد مصلوح الثلاثة موضوع هذه الدراسة تتكامل موضوعياً وتتابع زمنياً- قصداً أو تلقائياً- بصورة منطقية، فيأتي البحث الأول (العربية من نحو الجملة إلى نحو النص)

ويضبط مراجعتها من توافر شروط أهمها: الشمول والتجريد والملاءمة والاقتصاد وعدم التناقض والصلاحية للتطبيق (انظر حسّان، ١٩٨٢: ١١-١٧؛ والشاوش، ٢٠٠١: ٢٠/١، وعبد الدايم، ٢٠٠٦: ٢٢) ويستطيع الباحث في سياق أكثر تفصيلاً أن يكمل الموازنة بين هذه الجهود الثلاثة- وغيرها- بهذا المقياس وينظر إلى خفي الفروق من خلال منظرها.

٣_٦

هناك ثلاثة اتجاهات مشهورة في التحليل النصي، الأول: اتجاه تجزئة النص عند فاينريش، وهو منهج نحوي الأساس يعالج النص من خلال تحديد أوجه الترابط بين أجزائه ووحداته الصغيرة (انظر بحيري، ١٩٩٧: ص ٢٠٣ جدول تجزئة النص) استناداً إلى مجموعة من علاقات التماسك. والثاني: اتجاه نحوية النص عند فاندايك، وهو نحوي أيضاً غير أنه يضم معايير دلالية ونحوية معاً، ويضاف إليها تداولية النص أو عناصر التفاعل الإلغوي والاتصالي، وهو يُعنى بتوظيف معايير علمية متداخلة الاختصاصات، ومن أهم أهدافه الوصول إلى القواعد التي تحدد بنية المعنى أو ما أسماه «المعنى الكلي للنص» (انظر فاندايك، ١٩٧٧: ٢٣٣ وما بعدها). والثالث: اتجاه التحليل التوليدي عند بتوفي، وهو يتعامل مع النص من خلال رؤية كلية تُعنى بالربط بين التحليلين النحوي والدلالي معاً، مع ضم عناصر تداولية، لكن في إطار نظريته التي أطلق التي أطلق عليها «بنية النص- بنية العالم» (انظر بحيري، ١٩٩٧: ص د، ه). وإذا أردنا أن نصنف لسانيات النص عند سعد مصلوح- في شقّها الغربي الوافد- في أحد هذه الاتجاهات، فأظن أنها أقرب إلى اتجاه فاندايك المعني كثيراً بنحوية النص (بالمعنى العام للنحوية) من خلال عنايته المتكاملة بدراسة تراكيب النص وأبنيته وعناصره الدلالية والتداولية، هذا مع الاستفادة الكبيرة من معايير النصية السبعة عند دي بوجراند. وثمة ملحظ شكلي هنا ربما يؤكد ما نبينه من صلة لسانيات النص عند دكتور سعد باتجاه فاندايك؛ ويتمثل ذلك في توافق سعيد بحيري في عنوان الفصل الذي خصصه للحديث عن اتجاه فاندايك- مع سعد مصلوح في استعمال مصطلح «آجرومية»؛ فعنوان الفصل الخاص بفاندايك في كتاب سعيد بحيري (علم لغة النص الصادر سنة ١٩٩٧) هو: «نحوية النص عند فاندايك أو آجرومية النص»، وعنوان بحث سعد مصلوح الثاني (نحو آجرومية للنص الشعري). ألا يدل هذا التوافق أو التناص العلمي في استخدام مصطلح «آجرومية» على ما نزع منه من انتساب أبحاث سعد مصلوح- في شقّها الوافد- إلى اتجاه فاندايك؟ (انظر بحيري، ١٩٩٧: ٢١٨). وأظن أن

وصغرى، الصيغة الكبرى هي: علم النحو وعلم الصرف وعلم المعاني والبيان، والصيغة الصغرى هي: علوم البلاغة الثلاثة المعروفة، والصفة الجامعة بين الصيغتين هي وقوعهما تحت ما يسمى بأسلوبيات اللغة، وهو المبحث الذي يدرس الطاقات التعبيرية الكامنة والمحتملة في لغة معينة، وتقابلها أسلوبيات النص وهي التحققات الأسلوبية ممثلة عملياً في نوع بعينة من نصوص اللغة، والمجالات التي أسهمت فيها نظرية السكاكي الموسعة مسّت محددات مهمة في أسلوبيات اللغة وأسلوبيات النص الأدبي، ولذا يصبح من المهم جداً الانتقال بالتحليل اللساني من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص.

٤ - ٤

إن ما سبق كله يدفعنا إلى القول بأن مراجعة جهود سعد مصلوح في «نحو النص» تؤدي إلى خلاصة تتمثل في مجموعة من النتائج أهمها:

- أن له من الريادة في هذا المجال في الدرس اللغوي العربي المعاصر نصيباً لا تخطنه عين المراجعة البصيرة المنصفة.
- أنه- برغم محدودية أبحاثه واختصارها في هذا المجال- جمع بين التنظير، والتطبيق، والمراجعة والنقد بصورة ملحوظة ومتكاملة.
- أنه من خلال التطبيق قدم منهاجاً وأنموذجاً عملياً وعلمياً متماسكاً لتوظيف معطيات نحو النص في تحليل النص الشعري، كما تمكن من استلهام بعض مقولات التراث العربي في هذا التحليل، ومن أمثلة ذلك توظيفه مقولة «الفاعل والقابل والأثر»- وهي أساس النظرية النحوية عند السكاكي- في تحديد الإطار المفهومي للقصيدة.
- أنه استطاع أن يقدم لنا ملامح رئيسة لنظرية نصية عربية، قوامها الجمع بين معطيات علم النص الحديث واستثمار نحو الجملة العربي في صيغته الرصينة، مع ما أضافه اللثام عنه من صحيح فهم مُراد السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم»، الذي أدى إلى استنباط ثلاثية كبرى تضم النحو والصرف وعلوم البلاغة، وقد جعلها سعد مصلوح ممثلة لأسلوبيات اللغة التي ينبغي أن توظف في أسلوبيات النص الأدبي ونحو النص. وبهذا نستطيع أن نقول إن استثمار الخبرة العلمية والعملية في البلاغة والأسلوبية- بشكل واضح- من أهم سمات نظرية نحو النص عنده.

مدخلاً تنظيرياً واختباراً أول لفكرة نحو النص في العربية، مُراجعة وتشخيصاً للعوائق وتأسيساً للإطار وبياناً لكيفية وضع الصياغة المناسبة. والبحث الثاني (نحو أجرومية للنص الشعري) يعد تطبيقاً إجرائياً وعملياً للفكرة على قصيدة جاهلية يُختبر فيه مفهوم السبك والحبك وتُكتشف من خلال ذلك وسائل الترابط الشكلية ومفاهيمه المضمونية، مع التركيز على بيان أثر تغير الإيقاع في الدلالة وفاعلية أزمنة النص في تفسيره خاصة الزمنين الموضوعي والذاتي. ويأتي هذا العمل متميزاً لدقة منهجه وإجراءاته بالرغم من صعوبة نمط النص وخصوصية لغته. والبحث الثالث (المذهب النحوي عند تمام حسان...) يُمثل حالة نقدية تحليلية لمحاضرة للدكتور تمام، يتعرض فيها سعد مصلوح لقضايا كثيرة أثارها المحاضرة من أهمها: أهمية الإنجاز العلمي لتمام حسان في كتابه «اللغة العربية معناها ومبناها»، والمقارنة بين نحو الجملة ونحو النص وما تنطوي عليه من تحديد وبيان لمعايير نحو النص السبعة، وضبط ترجمة مصطلح (cohesion) بالسبك، ومصطلح (coherence) بالحبك، هذا بالإضافة إلى تصنيف لسانيات النص ضمن «اللسانيات الاحتمالية»، والحديث عن المكوّن البلاغي في نحو الجملة ونحو النص.

٤ - ٣

في مطلب المفاهيم والنظرية (٢/٠) استطعنا أن ندرك أهمية الإسهام العلمي لنحو النص الذي قدمه سعد مصلوح، والذي من خلاله تكشفنا لنا جملة من المبادئ والسمات منها: تحديد خصائص الإطار النظري لنحو النص وأشراطه الخمسة، واقتصار نحو النص عنده على مهمة الفهم والتفسير دون الإشارة إلى إنتاج النص، وكون الفهم الأمثل للظاهرة اللغوية هو غاية نحو النص، وضرورة التوازن في الجمع بين استثمار الصالح من التراث النحوي القديم والأخذ من الجديد بقدر مناسبته وما يحل من مشكلات؛ من منطلق أننا لا ينبغي أن نبدأ من الصفر المنهجي، وفي هذا الإطار تبين أن رؤية تمام حسان في كتابه «اللغة العربية، معناها ومبناها» تتمثل إعادة صياغة وتقديم رصيناً لنحو الجملة العربي صالحاً لارتداد آفاق نحو النص. ولقد تبين لنا أيضاً أن من أهم المسائل التي ترتبط بنحو النص عند سعد مصلوح أثر العلاقة بينه وبين البلاغة والأسلوبيات، وقد استطاع سعد مصلوح بسبره أغوار هذه العلاقة أن يقدم فيها رؤية جديدة خاصة تقوم على إنصاف السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم» والإشادة بنظريته المتكاملة في علم الأدب التي قطعت أوصالها، وبناء على ذلك ومن خلال هذه النظرية استقصى سعد مصلوح صيغتين للتحليل كبرى

المراجع

حامد، عبد السلام، ٢٠١١، "مدخل إلى دراسة التطور النحوي في العربية المعاصرة"، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٦٠، يوليو، الصفحات: ١٥-٧٥.

حامد، عبد السلام، ٢٠١٢/أ: "ثلاثة من نحاة النص القدماء: ابن جني وعبد القاهر والزمخشري"، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد ٣٢، يوليو، الصفحات: ٥٠٧-٥٤٤.

حامد، عبد السلام، ٢٠١٢/ب: "نظرية ابن مالك في النظم والنص"، مجلة كلية التربية (القسم الأدبي)، جامعة عين شمس، العدد ٢، المجلد الثامن عشر، الصفحات: ١٣٣-٢٢٣.

حسان، تمام، ١٩٨٢، الأصول: دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حسان، تمام، ١٩٩٢، "نحو الجملة ونحو النص": محاضرة الصيف في الموسم الثقافي لمعهد اللغة العربية بجامعة أم القرى، مكة المكرمة (نسخة مصورة مخطوطة).

حسان، تمام، ٢٠٠٦، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، القاهرة.

حماسة عبد اللطيف، محمد، ٢٠٠١، الإبداع الموازي: التحليل النصي للشعر، دار غريب، القاهرة.

حمودة، عبد العزيز، ٢٠٠٣، الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص، سلسلة عالم المعرفة، ٢٩٨، المجلس الوطني للثقافة، الكويت.

خطابي، محمد، ٢٠١٢، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. ط٣.

خطابي، محمد، ٢٠١٣، مقال "مطارات في لسانيات النص والخطاب"، الجمعية المغربية للسانيات والنص وتحليل الخطاب بجامعة ابن زهر في أكادير، لسانيات النص وتحليل الخطاب (كتاب مؤتمر)، الصفحات: ٣٩٥/١-٤٠٥، دار كنوز المعرفة، عمّان.

دي بوجراند، روبرت: ١٩٨٠، النص والخطاب والإجراء، ترجمة الدكتور تمام حسان، ١٩٩٨، عالم الكتب، القاهرة.

شبلنر، برنر، ١٩٧٤، علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النص، ترجمة د. محمود جاد الرب، ١٩٨٧، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١.

إبراهيم، خليل، ١٩٩٧، الأسلوبية ودراسة النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

التبريزي، الخطيب، ١٩٨٧، شرح اختيارات المفضل، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

التبريزي، الخطيب، ١٩٩٤، الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣.

السكاكي، أبو يعقوب يوسف، ١٩٨٣، مفتاح العلوم، ضبطه وشرحه نعيم زرور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

الشواش، محمد، ٢٠٠١، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النص، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١.

الضبي، المفضل بن محمد، ١٩٧٩، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦.

العارف، عبد الرحمن، ٢٠٠٢، تمام حسان رائداً لغوياً، عالم الكتب، القاهرة، ط١.

القرطاجني، أبو الحسن حازم، ١٩٨٦، منهاج البلاغ وسراج الأدياء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣.

الميساوي، خليفة، ٢٠١٣، بحث "لسانيات النص بين اللسانيات العربية واللسانيات الغربية"، الجمعية المغربية للسانيات النص وتحليل الخطاب بجامعة ابن زهر في أكادير، لسانيات النص وتحليل الخطاب (كتاب مؤتمر)، الصفحات: ٢٤٣/١ - ٢٦٧، دار كنوز المعرفة، عمّان.

بحيري، سعيد، ١٩٩٧، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة.

حامد، عبد السلام، ٢٠٠٩، "النحو العربي والنص: مدخل لبحث العلاقة بينهما"، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، إصدار خاص، يوليو، الصفحات: ٧-٧١.

فالور، روجر، ١٩٩٦، النقد اللساني، ترجمة د. عفاف البطاينة، ٢٠١٢، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١.

فضل، صلاح، ١٩٩٢، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة، الكويت.

مصلوح، سعد، ١٩٩٠، بحث "العربية من نحو الجملة إلى نحو النص"، د. وديعة النجم ود. عبده بدوي، الكتاب التذكاري "عبد السلام هارون معلماً ومؤلفاً ومحققاً"، قسم اللغة العربية بجامعة الكويت، الصفحات: ٤٠٥ - ٤٣٢.

مصلوح، سعد، ١٩٩١، بحث "نحو آجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية"، مجلة فصول، العددان ١، ٢، المجلد العاشر، الصفحات: ١٥١ - ١٦٦.

مصلوح، سعد، ١٩٩٣، في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١.

مصلوح، سعد، ٢٠٠٤/أ، في اللسانيات العربية المعاصرة: دراسات ومثاقفات، عالم الكتب، القاهرة، ط١.

مصلوح، سعد، ٢٠٠٤/ب، في النقد اللساني: دراسات ومثاقفات في مسائل الخلاف، عالم الكتب، القاهرة، ط١.

مصلوح، سعد، ٢٠١٠، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة، عالم الكتب، القاهرة، ط٢.

مطر، عبد العزيز، ١٩٨٧، في النقد اللغوي، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، ط١.

مفتاح، محمد، ١٩٩٣، المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١.

مفتاح، محمد، ٢٠٠٥، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٤.

هاينه من، فولفجانج، و فهيفيجر، ديتر، ١٩٩١، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، ١٩٩٩، مطابع جامعة الملك سعود، سلسلة اللغويات الجرمانية (رقم ١١٥) الرياض.

عبدالدايم، محمد عبد العزيز، ٢٠٠٦، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١.

عبد المجيد، جميل، ٢٠٠٣، "علم النص: أسسه المعرفية وتجلياته النقدية"، مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد ٣٢، الصفحات: ١٤١ - ١٧٧.

عبدالمجيد، جميل، ٢٠١٣، بحث "لسانيات النص ونقد الشعر، مراجعة نقدية"، الجمعية المغربية لللسانيات النص وتحليل الخطاب بجامعة ابن زهر في أكادير، لسانيات النص وتحليل الخطاب (كتاب مؤتمر)، الصفحات: ٢٦٩/١ - ٣٠٢، دار كنوز المعرفة، عمان.

عفيفي، أحمد، ٢٠١٢، اللغة بين الثابت والمتغير: دراسة نصية، دار غريب، القاهرة.

علوي، حافظ، ٢٠٠٩، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١.

علوي، حافظ، ٢٠١٣، بحث "عندما تسافر النظرية: لسانيات النص نموذجاً"، الجمعية المغربية لللسانيات النص وتحليل الخطاب بجامعة ابن زهر في أكادير، لسانيات النص وتحليل الخطاب (كتاب مؤتمر)، الصفحات: ٣٠٣/١ - ٣٣٩، دار كنوز المعرفة، عمان.

عيد، محمد، ١٩٧٦، الرواية والاستشهاد باللغة: دراسة لقضايا الرواية والاستشهاد في ضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة.

فاركلوف، نورمان، ٢٠٠٣، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة د. طلال وهبه، ٢٠٠٩، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١.

فان دايك، تون أ، ١٩٧٧، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، ٢٠١٣، أفريقيبا الشرق، الدار البيضاء، المغرب.

فان دايك، تون أ، ١٩٨٠، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة د. سعيد بحيري، ٢٠٠١، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط١.

المراجع الأجنبية

Beaugrande, Robert-Alain de, & Dressler, Wolfgang Ulrich, 1981: Introduction to Text Linguistics, Longman, London and New York.

Beaugrande, Robert-Alain de, 1985, "Text Linguistics in Discourse Studies", within: Handbook of Discourse Analysis, Volume 1 "Disciplines of Discourse", edited by Teun A. Van Dijk, Academic Press, London. Chapter 3, PP 41-70.

Schiffrin, D., Tannen, D., & Hamilton, H. E. (Eds.) 2001: The Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers, USA, UK.

Van Dijk, Teun A, (Ed) 1985: Handbook of Discourse Analysis, Volume 1 "Disciplines of Discourse", Academic Press, London.